القاهرة ...بيروت...باريس

رواية

ممدوح الشيخ

هذه الرواية

هذه الرواية هي الأولى لكاتبها وقد حصلت على المركز الثالث في الدورة الثانية (2005) للمسابقة السنوية الأدبية التي تنظمها الهيئة العامة لقصور الثقافة ويمنح جوائزها الكاتب المصري الأستاذ أحمد فتحي عامر (مستشار مؤسسة الفكر العربي).

وكانت لجنة تحكيم الرواية في هذه الدورة مكونة من:

الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد الله الأستاذ بجامعة القاهرة

الأستاذ محمد مستجاب الروائي المعروف

الأستاذ مصطفى عبد الله مشرف الصفحة الأدبية بجريدة الأخبار.

...

وقد صدرت طبعتها الأولى عن "**الدار العربية للعلوم**"، بيروت في 2006.

القاهرة

العاصفة



1

في الصباح تبدو شوارع الأحياء القديمة من القاهرة مجهدة وحيية ونابضة بالحياة ففيها، يقبع ما تبقى من روح هذه المدينة .. .. ليس فقط من البنايات القديمة بل العلاقات الدافئة والأشياء التي تجاهد لتتحفظ لنفسها بموطئ قدم في مدينة تكبر .. وتتغير .. وتزدحم .. وتكفهر .. ولا تشيخ.

وكلما ازدادت المسافة بين الأحياء الراقية الجديدة التي ترسم صور القاهرة الحديثة اقتربت هذه الأحياء القديمة من المتحف المفتوح، فكأن سكانها في مقاهيهم القديمة .. وحوانيتهم المتواضعة الضيقة .. وشرفات منازلهم المتآكلة وشوارعهم المليئة بالحفر يقدمون عرضا طبيعيا لصورة زمان ولى، وعندما يزور القاهريون الأكثر حداثة، هذا المكان/ الزمان إنما يريد كل منهم أن يرى صورة ماضيه بحنين لاعقلاني ممزوج بالتعالي والإشفاق على سكانها، بينما سكانها مقتنعون بشكل راسخ بأنهم في المكان الذي

ينبغي أن يكونوا فيه. . . وهم من ثَم يستخدمون كثيرًا تشبيه علاقة السمك بالماء لوصف علاقتهم بعالمهم.

وفي هذه الأحياء تبدو القاهرة أقل تغولًا وقسوة .. وأكثر إنسانية.

وعندما تشرق الشمس على شارع زهران المتفرع من شارع حسن الأكبر بحي عابدين تتشكل بالتدريج لوحة بديعة من الناس والحجارة والعربات، ويشترك معظم أصحاب الحوانيت في الشارع الصغير في طقوس لا تكاد تختلف .. تحيات مثقلة بالخدر .. .. قليل من الماء يرشه كل منهم أمام بابه .. .. أدعية بالبركة والرزق، ويبدأ صرير الأبواب يتوالى واحدا تلو آخر لتكتمل صورة الشارع.

"صباح الخير يا أستاذ محسن"

ألقاها بنبرة ودود حسن عامل المقهى وخدر النوم يطل من عينيه راسما خطوطا بارزة وغائرة في وجه خشن الملامح تتماهى سمرته المختلطة باصفرار واضح مع لون الفوطة التي يرتديها فوق قميص وسروال رخيصين وكانت ذات يوم بيضاء. يرتب حسن المقاعد والمناضد فوق الرصيف أمام المقهى، وتتوزع نظراته بين الرصيف والشاب المار أمامه الذي بادره التحية بالإشارة وهو يتجه إلى باب خشبي عريض مطلي بلون داكن تبدو عليه علامات الزمن خدوشًا وخربشات غير منتظمة.

فـتح محسـن قفـل البـاب ودخـل إلى المكتـب ليمـارس طقوسـه اليومية .. .. فتح بابًا من الألوميتال يقسم المكتب نصفين، ففي النصف الـداخلي يوجـد مكتـب صـاحب الشـركة. فـتح نافـذة مكتـب صـاحب الشـركة ليـدخلها هـواء جديـد .. أخـرج سـلة المهمـلات لإفراغهـا مـن محتويات اليوم السابق، وأعاد النظام للمكتب الصغير ذي المظهر المتواضع ثم عـاد إلى القسـم الخـارجي حيث مكتبه هـو. التقط منفضـة مـن الـريش واتجه للباب الخارجي ومررها على اللافتة الخارجية ليزيل الغبار عنها. ألقى نظرة عـابرة على خط الثلث الأنيق الذي كتبت به اللافتة، أعـاد المنفضة إلى مكانها على المسمار المختبئ وراء الباب الخشبي للمحل.

دب النشـاط في جسـده بالتـدريج فهـو منذ تخرج في كلية التجـارة قبل أحد عشر عامًا اعتاد جسده على دورة من النشاط والاسترخاء تكاد تكون ثابتـة، وعالمه محصور بين البيت الـذي يبعد عـدة أمتـار مـن مكـان عمله والمقهى المواجه، سنوات عمره التي تقترب من منتصف العقد الرابع مـن العمـر لا يعكسـها مظهـره فالنظـارة والكـرش الواضـح يضـفيان عليـه مظهـر رجـل يقـترب مـن الخمسـين. جلـس محسـن خلـف مكتبـه المعـدني المواجه تمامًا للبـاب، وجـاءه عامـل المقهى بمشروب الصباح، فنجان قهـوة تركي معد بعناية لزبون دائم، وضع القهوجي فنجان القهوة وانسحب في هـدوء. استدار محسـن ناحيـة الهـاتف وأدار القـرص .. .. فجـاءه الـرد مـن الطرف الأخر سريعًا:

"صباح الخير يا فؤاد بيه"

"الحمد لله"

"اطمئن يا افندم فلم أنصرف بالأمس إلا بعد أن دخلت البضاعة كلها المخازن .. يبقى الآن فقط طباعة غلاف العلبة والمطبعة جاهزة للعمل"

"أوامرك يا فؤاد بيه .. سأرسل إليه فورًا".

مد محسن رقبته يحاول اقتناص القهوجي الذي يتحرك كالبندول ولا يستقر في مكان، وانتبه القهوجي فهرول إليه ومد يده بشكل آلي ليأخذ فنجان القهوة فأشار إليه محسن أن يتركه:

"لا .. لم أشرب القهوة بعد ..أريد منك أن ترسل لي عم شفيق الخطاط بمجرد أن يظهر ..فاهم؟"

أومأ العامل برأسه وانسحب تحت ضغط تصفيق الزبائن الذي لا ينقطع. خرج حسن وأخرج محسن من أحد الأدراج ملفًا من الأوراق وانهمك في القراءة .. ثم أخرج الآلة الحاسبة وبدأ ينقل عينيه بكفاءة بين الأوراق وشاشة الآلة الحاسبة. كل شيء يشير إلى يوم عمل شاق ومهمة تستغرق كل تركيزه.

دق جرس الهاتف فرفع محسن السماعة مسرعًا:

"آلو"

"نعم .. شركة أسواق الشرق العربي لاستيراد الأغذية .. لا فؤاد يه غير موجود"

"ربما لا يأتي اليوم .. .. فهو مشغول بارتباطات خارج المكتب"

"إذا أرسلتم أمر التوريد اليوم يمكن أن تستلموا البضاعة بعد غد صباحا "

"لا .. لا .. بالفاكس، الهاتف لا يصلح"

"نفس الرقم .. سأفتح لك الفاكس"

استدار وفتح الفاكس ووضع سماعة الهاتف والتفت إلى المكتب متأهبا لمواصلة الغرق في الأوراق والأرقام فوجد عجوزًا يجلس على المقعد المواجه للمكتب ..

عم شفيق الخطاط. وجه فيه إحساس غريب بالطمأنينة والغربة معا. تجاوز السبعين بعدة سنوات قضى الشطر الأكبر منها على منضدة في هذا المقهى حيث يمارس عمله الذي فرض عليه انحناءة صارت تميز قوامه ونظارة سميكة وآثار حبر متفرقة على يديه. جاء صوت العم شفيق هادئًا دافئًا:

"كنتَ منهمكا في الرد على التليفون، وكانت فرصة لأن ألتقط أنا أنفاسي"

"ربنا يقويك يا عم شفيق .. .. فؤاد بيه كما تعلم لا تقنعه خطوط الكومبيوتر ويصر على أن تكتب بنفسك كل ما نحتاج إليه. ونحن نحتاج

منك بسرعة أن تكتب لنا بيانات منتج جديد نريد أن ينزل الأسواق بأقصى سرعة، باختصار يا عم شفيق .. .. الموضوع كله متوقف عليك".

دخل القهوجي ووضع فنجانًا من القهوة أمام الرجل العجوز وانهمك محسن في البحث عن ورقة البيانات التي سيكتبها الخطاط من درج إلى آخر فقال له العم شفيق بنبرة واثقة:

"**البيانات معروفة يا أستاذ محسن، فأنا منذ ثلاثين عامًا أعمل مع فؤاد بيه، وقبله مع أبيه الله يرحمه .. .. لا تجهد نفسك في البحث"**.

رفع محسن رأسه وابتسم وبدا أنه يريد أن يلاطف الرجل العجوز، فابتسم وقال في نبرة ودود:

"**ثلاثين سنة يا راجل يا عجوز؟**"

ضحكا، فقال محسن:

"**ألم تجرب الكتابة بالكومبيوتر يا عم شفيق؟**"

فقال شفيق وهو يرشف فنجان القهوة:

"**جربت .. عندما ظهر كنت من أوائل من تعاملوا معه، وحاولت استخدامه في إنتاج لوحات تجمع بين دقة الآلة ورقة الإنسان، لكنني اكتشفت في النهاية أنه آلة .. .. آلة بلا روح**".

اتسعت عينا محسن الجامعي نصف المثقف من الدهشة وهو يسمع هذا العجوز البسيط المظهر يتحدث عن الرقة والدقة والإنسان والآلة. وقطع العم شفيق دهشته:

"لا تندهش يا بني .. .. أم أقول لك يا أستاذ محسن؟"

واكتست ملامح محسن، رغم إحساسه المفرط بالانشغال وضيق الوقت، ببشاشة واضحة:

"**لا يا عم شفيق بل أنت الذي يستحق عن جدارة وصف الأستاذ** .. .. **تفضل أكمل كلامك**".

رشف شفيق رشفة أخرى من فنجان القهوة وأشار إلى لوحة معلقة على جدر المكتب خلف محسن وقال:

"انظر إلى هذه اللوحة"

والتفت محسن إليها، وشعر وهو الذي يقضي شطر النهار في المكتب يوميا لسنوات أنه للمرة الأولى يراها بوصفها لوحة، كانت نبرات عم شفيق في حد ذاتها دعوة يصعب رفضها للتأمل والتأني. وقبل أن يكمل شفيق كلامه دق جرس الهاتف فرفع محسن السماعة بشكل آلي، وبدا من الحوار بوضوح أن المتحدث يستعجل ورقة البيانات التي سيكتبها عم شفيق وأن المطبعة تنتظرها.

أخرجت المكالمة محسن من حوار لم تألفه أذناه، حوار جعله يقدر هذا العجوز تقديرًا مختلفًا وينظر للخطوط التي تركتها السنون على ملامحه نظرة أخرى . . . نبهته المكالمة بحدة إلى أن الوقت أضيق من أن يحتمل مثل هذه المناقشات المسترخية، حتى لو كانت ممتعة، ترجم إحساسه فورًا بشكل لا شعوري إلى تلطُّف واضح لإنهاء المناقشة:

"لا مؤاخذة يا عم شفيق .. كما ترى المطبعة تنتظر وصول ورقة البيانات".

"**وأنا جاهز إن شاء الله**"

قالها شفيق وهو يأخذ الرشفة الأخيرة من الفنجان ويهم بالقيام متثاقلًا.

2

خرج العم شفيق واتجه للمقهى ليجلس على منضدة بعينها اعتاد منذ سنوات أن يجلس عليها ليمارس عمله، حدق في المنضدة فرأى في بقايا الحبر الذي يلطخها في خطوط متقاطعة سنوات عمره. تحسست أنامله قطعة الرخام والهيكل المعدني في ألفة غامرة وهطلت الذكريات كأنها مطر غزير .. .. فمنذ سنوات لم يعبر الجسر الفاصل بين المهنة والفن ولم يخض نقاشا من هذا النوع، أحيانا يشعر العم شفيق أنه هُزِم وتحوَّل إلى مجرد "**صنايعي**"، وجاء هذا الحوار العابر لينكأ جرحا شديد العمق.

"**الفن أنبل ما في التاريخ البشري**"

هذه العبارة التي سمعها شفيق من مُدرِّسه يوم التحق للمرة الأولى بمدرسة الخطوط العربية بشارع نوبار شابًا صغيرًا يبحث عمن يعلمه كيف

يصبح خطه الجميل مصدر دخل يرتزق منه. ومرت السنوات قبل أن يعرف شفيق أن هذا المُدرِّس العجوز فنان عظيم أعطى عمره لفن الخط والزخرفة وأدرك في نهاية رحلته أن الزمن ليس زمنه فوهب عمره للحبر وقنع بأن ينقل شيئا من النبل للأجيال القادمة .. .. تحسست يده الخطوط والنقاط المتشابكة وتمتم:

"الله يرحمك يا أستاذ حامد .. .. الله يرحمك ويسامحك".

وبدأ صوت داخلي ينساب في أعماقه مستعرضًا رحلة العمر:

"كان هدفك يا أستاذ حامد أن تضع على كاهل كل تلميذ من تلاميذك مسئولية الدفاع عن النبل في هذا العالم .. .. لكنك دون أن تقصد وضعت على كواهلنا الضعيفة كل التاريخ البشري .. .. ربما لم تتخيل أن يأتي يوم يتحول فيه الناس من جهل النبل أو تجاهله أو الاستخفاف به إلى كراهيته .. بل إلى الرغبة في قتله .. هذه هي الحقيقة يا أستاذ حامد . . . البشري أصبح كل طموحه أن يقتل بشريته ويؤكد حيوانيته".

اقترب القهوجي من شفيق حاملًا حقيبة جلدية عدت عليها عوادي الزمن وإن لم يخلُ مظهرها من آثار عز اندثر، وضع الحقيبة وهو يمر حاملًا في يده الأخرى بعض المشروبات فأسقطها في حرفية المعتاد ومرق. تناول شفيق حقيبته وقد استبد به وجدٌ غريب اعتصره اعتصارًا، حاول أن يخرج أشياءه بالترتيب المعتاد والعناية نفسها لكن يداه خانتاه،

وبالتدريج بددت الخواطر المتدفقة سكيتنه، كان موزعًا بين ذكريات دافئة ومرارة لم تفارقه منذ انتهى به مشوار الطموح والأمل، على مقعد في مقهى صغير يبحث عن قوت يومه موليًا ظهره لعالم كان أسبق منه في الانصراف عنه وعن موهبته. غالب الرجل العجوز اضطرابه شيئًا ما وبدأ يكتب.

وسكنت ملامحه بعد لحظات ثم سكنت جوارحه إلا من حركة أنامله الدقيقة كأنها مبضع جراح .. .. وصار معطل الحواس لا يشعر إلا بحركة الريشة وسنها الدقيق، حتى أخرجه من عزلته محسن بصوته الجهوري وهو يحدثه مقتربا منه في تعجل شديد:

"**الله يا عم شفيق**".

قالها حتى قبل أن يرى ما خطه الرجل بسن الريشة الدقيق .. وأكمل بصوت أقل ارتفاعًا:

"**كان عندك حق يا عم شفيق .. .. كأنني أرى اللوحة لأول مرة**".

ارتسمت على وجه العم شفيق ابتسامة عريضة وهو يشعر هو الآخر لأول مرة منذ سنوات أنه ليس وحده في عالمه الفريد .. .. أصبح الآن يأمل أن يجد من يشاركه حمل عبء التاريخ البشري، وقال لمحسن:

"**الآن أحسست بالبعد الإنساني فيه .. .. لأنه بشري، فيه قبس إلهي**".

. . .. انطلقت الكلمة من بين شفتي محسن محملة بصدق حاد كالنصل:

"**الله يا عم شفيق .. ..**" .

وسريعا استعاد محسن إحساسه بالتعجل وضيق الوقت فقال:

"**لابد أن تكون لنا جلسة أخرى أسمعك فيها بعيدا عن مشاغل العمل**".

تحولت صوت محسن إلى نبرة أكثر جدية، وقال:

"**اسمع يا عم شفيق .. .. هذه الورقة فيها البيانات الجديدة**".

ثم قال بلهجة تقريرية:

"**طبعًا أنت تعرف بيانات الشركة كلها وتاريخ الصلاحية وما إلى ذلك .. أنا مضطر للانصراف فورًا، الساعي عند فؤاد بيه في المنزل وسيعود إلى الشركة خلال ساعة، أعطه الورقة بعد أن تكتب وهو يعرف ماذا يجب أن يفعل**".

كان الكلام يتوالى يدفع بعضه بعضًا دون فرصة للرد فأومأ لمحسن، وأدرك أن الوقت من الضيق بحيث لا يتسع لأي نقاش ولا يحتمل استرسالًا في التأمل. تناول ورقة البيانات وبدأ يقرأ:

"**لحم بقري مجمد**"

"**المنشأ تايلند**"

"**الصلاحية .. ..**

وتلاشت الكلمات من أمام عينيه وبدأ يغرق في خواطره مرة أخرى .. عبارات بعينها حفرها الأستاذ حامد حفرًا في وجدان العم شفيق وعقله، وبقيت كلمة واحدة تتردد على مسامعه .. .. كلمة واحدة "**بشري**" .. .. "**بشري**" .. .. وسيطر على العجوز إحساس بأن الخواطر استضعفته، ورأت خطوط الزمن على جبهته ورعشة يديه فطمعت أن تهزمه. واستجمع قوته – أو هكذا تصور – وبدأ يصارع في منازلة غير متكافئة. أنجز شفيق المهمة وحمل الأوراق إلى مكتب الشركة فخرج الساعي لاستقباله في توقير يليق بشيبته، فكلمات الترحيب تتوالى واليد تمتد لتعين الرجل على الاستقرار على مقعده. مد شفيق يده للساعي بالأوراق، فأخذها الساعي بعد أن استأذن العم شفيق، وطار للمطبعة وتركه، بعد أن طلب له كوبًا من الشاي من المقهى.

3

دارت ماكينات الطباعة، وانتقلت الأوراق في سرعة وتوتر بين أيدي العمال الأميين، وكان تأخير عم شفيق في الكتابة سببًا في انصراف صاحب المطبعة نفسه مطمئنا إلى مهارة عماله وخبرة العم

شفيق. حملت الأوراق المطبوعة على سيارة لنقلها للمخازن، وهدأ رنين الهاتف المتوالي بعد أن اطمأن فؤاد بيه إلى بدء المرحلة الأخيرة من تجهيز المنتج، وجلس محسن في المكتب يتلقى أوامر التوريد ويكتب الفواتير، والعمال في المخازن في سهرة خاصة طالما سهروها مع كل منتج جديد يتم تجهيزه.

دق جرس الهاتف ورفع محسن السماعة، جاءه صوت فؤاد بيه واضحا فخلع النظارة وفرك عينيه المنتفختين المجهدتين من طول التحديق في الأوراق وشاشة الآلة الحاسبة. نظر إلى ساعة الحائط المعلقة خلفه ولم ينتبه إلا في هذه اللحظة أن الساعة تجاوزت الثانية صباحا بقليل. أوقف جرس الهاتف حركة الماكينة المكوكية بين شاشة الآلة الحاسبة والأوراق المتناثرة .. وخرج صوت محسن مجهدًا نصف مبحوح.

انتهت المكالمة سريعا فأنعشته لأنها حملت وعدًا بالراحة، فبإمكانه أن يستريح في البيت غدًا لأن الباقي من عمليات الشحن والتسليم لا تحتاج وجوده. وحمل محسن مفاتيحه وغادر المكان مشيرًا لأحد العمال أن يغلق الباب.

4

عاد محسن من الإجازة القصيرة وهو يشعر بخمول لذيذ ويحاول أن يستعيد قدرة الآلة شيئا فشيئا، فتح الباب ونظر أمامه فرأى لوحة الخط المعلقة على الحائط منذ سنوات، تذكر كلام شفيق فتأملها وشعر أن التأمل نفسه يحتاج إلى تعوّد. بدأ محسن في ممارسته طقوسه اليومية .. جلس على كرسيه وقفزت لذهنه فكرة، أتكون الطقوس اليومية التي أمارسها منذ سنوات هي التي تحجب عني ما يراه رجل مثل عم شفيق؟ دخل عامل القهوة ووضع الفنجان اليومي أمام محسن الذي لم يستكمل دورة الحركة الروتينية، فلم يفتح مكتب صاحب الشركة ولا أفرغ سلة المهملات .. .. انسحب حسن وفي يده الصينية في هدوء فقال محسن مستوقفا:

"**هل جاء عم شفيق؟**"

فقال العامل:

"**نعم**"

رد محسن بنبرة متحمسة:

"**فأحضر له قهوته ليشربها معي هنا**".

دخل العم شفيق فحيا محسن وجلس وهو يشعر بألفة تنمو بينهما شيئا فشيئا ، والتفت محسن إلى اللوحة المعلقة خلفه على الجدار وسأل:

"منذ متى كتبت هذه اللوحة يا عم شفيق؟".

ابتسم الرجل وقال بلهجة تعليمية يغلفها الود الشديد:

"**أولًا يجب أن تواجه اللوحة حتى تستطيع أن تتذوقها، فالعمل الفني كالإنسان لا تستطيع أن تنفذ إلى قلبه ما لم تجعل عينيك في عينيه بشكل مباشر**".

اندهش محسن وهو يسمع كلمات الرجل العجوز والدفء الغامر في أحرفها والعمق الشديد في معانيها:

"ألهذه الدرجة تحب الفن يا عم شفيق؟"

"**الفن شيء نبيل يا أستاذ محسن، والنبل أجدر الأشياء بالاحتفاء في هذا العالم .. .. وهو من نتائج تكريم الله للإنسان .. .. وفي حدود علمنا فليس للكائنات الأخرى فنون**".

زال الحاجز تمامًا بين السامع والمتكلم، وكشف العم شفيق عن المثقف في داخله واستخدم معجما لم يسمعه محسن على لسانه قبل الآن. شعر محسن أن عليه أن يتعلم وأن يجلس من شفيق مجلس التلميذ من أستاذه.

ترك العم شفيق حديث الفن وسأل محسن:

"ما مؤهلك يا أستاذ محسن؟"

ورد:

"**بكالوريوس تجارة و .. ..**"

وضاع صوت محسن فجأة .. .. وانتبها معًا على صوت سيارة شرطة تطلق نفيرها وتتجه مسرعة ناحية الشركة مثيرة سحابة كثيفة من الغبار وتظاهرة من النظرات المتسائلة في الشارع الهادئ. وقفت السيارة أمام باب الشركة ونزل منها عدد كبير من الجنود أحاط بعضهم بالباب وانتشر آخرون داخل المكتب. عقدت المفاجأة لسان محسن ووقف بشكل لا شعوري بينما العم شفيق يجلس في سكون مترقبًا .. .. كانت ملامح الضابط الذي نزل من السيارة واتجه نحو الباب توحي بالصرامة لدرجة مخيفة.

ابتلع محسن ريقه وتكلم بصعوبة:

"خير يا أفندم؟"

"أنت صاحب الشركة؟"

قالها الضابط كما لو كانت مقدمة لكارثة، فرد محسن متلعثمًا:

"لا .. لا يا أفندم .. .. صاحب الشركة فؤاد بيه عبد القادر وهو غير موجود".

بدأ الضابط يتحرك متفحصًا كل شئ في صمت دون أن يتخلى عن صرامته، وقال في تهكم لا يخلو من عدوانية:

"وأنت ماذا تعمل؟"

"محاسب يا أفندم"

"وأين صاحب الشركة؟"

"في المنزل يا أفندم"

قالها محسن وهو يمد يده إلى الهاتف، وبدا وهو يحاول تهدئة الضابط كما لو كان ينزع فتيل قنبلة توشك أن تطيح برأسه. طلب الرقم في ارتباك شديد وانتظر أن يرد الطرف الآخر لحظات مرت كأنها أيام، وهو يختلس النظر للضابط وكأنه يتوقع أن يطلق عليه الرصاص دون تحقيق أو محاكمة بل حتى دون أن يعرف ما تهمته.

"فؤاد بيه"

قالها كأنه انتشل من الغرق

"ضابط يسأل عن حضرتك يا أفندم".

وقبل أن يكمل كلامه انتزع منه الضابط منه سماعة الهاتف بعنف وقال بلهجة آمرة:

"أنت مطلوب في النيابة حالًا"

"عندما تذهب ستعرف"

"نيابة جنوب القاهرة . . . . ومعي أمر بإغلاق الشركة سأنفذه فورًا".

أعطى الضابط السماعة لمحسن وصوت فؤاد مسموع بوضوح يحاول أن يتفاهم معه، ووضع محسن السماعة على أذنه وهو مذهول مما يحدث ثم وضعها لينهي المكالمة. تأبط محسن عم شفيق الذي بقي

صامتًا لا يدري ماذا يفعل وخرجا .. .. فأشار الضابط للجنود فخرجوا وأغلقوا الباب .. .. ووضعوا عليه أختام الشمع الأحمر.

وتلاشى غبار انطلاق السيارة وهي تغادر المكان . .. . وبقيت الأسئلة.

القاهرة

الكهف

23

1

غادر فؤاد عبد القادر منزله مبكرًا، على غير عادته، دون أن يتهاون في شيء من مظهره المتأنق دائمًا، فهو وإن كان في النصف الثاني من العقد السادس من العمر، إلا أنه يردد منذ فترة أنه في المرحلة التي سيقطف فيها ثمرة سنوات العرق، ركب سيارته الميتسوبيشي السوداء الجديدة وأدار محركها وامتدت يده لتفتح الراديو كما اعتاد يوميًا، غير أنه كان راغبًا في أن يفكر في المفاجأة التي تنتظره فأغلقه بشكل عصبي، مرت الدقائق بطيئة عصية مرعبة حتى وصل إلى نيابة جنوب القاهرة. نزل من سيارته أمام مبنى النيابة ودلف إليه كأنه يدخل كهفًا ضخمًا مليئًا بالخفافيش، رعب .. رعب غريب لا يدري له سببًا كان يجتاحه .. .. كأنه يساق مقيدا إلى مذبح ليقدم قربانًا لأله يوناني أرعن لا يرضيه إلا إنزال الكوارث بأي برئ. زاغ بصر فؤاد وهو يبحث في الممر الطويل نصف المعتم عن مصدر للإحساس بالأمن .. .. وجه يعرفه .. .. صوت يناديه .. أي بصيص من نور في هذا الكهف المظلم.

امتلأت أذناه بطنين خفافيش فصار يرفع يده بشكل لا شعوري كل فترة ليتقي خطرًا لا يعرف مصدره، لم تمر اللحظات ثقيلة، بل لم تمر مطلقا .. .. توقف الزمن وكادت تتوقف معه دقات قلبه ثم تسارعت الدقات وازداد الخفقان. فكر فؤاد عبد القادر للحظات أن يستدير ويخرج من باب المبنى ويهرول هاربًا. لكن إلى أين يهرب؟ ومم يهرب؟

إنه الحدس الملعون الذي استولى عليه منذ دق جرس الهاتف بالمكالمة المشئومة، وبدأ يكلم نفسه دون أن يدري:

"**إحساسك لا يكذبك يا فؤاد** .. .. **لقد انزلقت قدمك في بئر لا قرار لها**".

وعملت غريزة البقاء عملها فحاول أن يطمئن نفسه:

"**ما كل هذا الرعب يا رجل؟**"

ثم ربتت يد على كتفه فانتفض كعصفور مذعور هاجمه المطر وهو بعيد عن عشه .. .. وتفصد العرق من جبينه غزيرًا باردًا. لم يكن في حاجة إلى مرآة ليرى وجهه فيها فقد رأى ملامحه في نظرة محاميه الذي اتسعت عيناه من الدهشة.

"**ما كل هذا الإحساس المخيف الذي يكسو ملامحك يا فؤاد بيه؟**"

وخرجت الكلمات من بين شفتي فؤاد عبد القادر ممزوجة بالأسى والضعف:

"لا أدري يا أستاذ خالد .. .. إحساس بالخوف الشديد لم يفارقني منذ كلمت الضابط الذي أغلق مقر الشركة .. .. وما يزيد خوفي أنني اعتدت ألا يكذبني إحساسي".

مد خالد يده في جيبه في هدوء وأخرج منديلًا جفف به عرق فؤاد بيه برقة، وأخذ يحدثه في هدوء وثقة:

"اسمع يا فؤاد .. .. نحن مرتبطان بعلاقات عمل وصداقة منذ أكثر من خمسة عشر سنة .. .. وأنا أعرفك جيدًا .. .. كما أنني محاميك وبحكم هذه العلاقة أنا مطلع على الموقف القانوني لكل أنشطة الشركة وهذا مطمئن .. .. أما هواجسك فلا مبرر لها على الإطلاق وينبغي ألا تستسلم لها".

هدأ فؤاد عبد القادر، إلى حدٍّ ما، وبدأ يستجمع شجاعته وقال لمحاميه:

"اسمع يا خالد .. .. رغم أنني لم أرتكب في حياتي عملًا غير قانوني مهما كان بسيطا منذ أن ورثت هذه الشركة عن أبي، إلا أنني أحس بسحاب أسود كثيف يقترب مني ويوشك أن يحيط بحياتي".

قالها فؤاد وعيناه ثابتتان وغائمتان.

"هذا الذي تقوله غريب يا فؤاد"

وغير خالد – عمدًا – نبرة صوته لتكون أكثر عقلانية:

"ولكـن مـا علينـا .. .. اسمـع يا فـؤاد .. هـل هنـاك أي شـواهد تجعلك تستسلم لهذا الحدس؟".

بلـع فـؤاد ريقـه بصعوبة ولم يجـب، وبـدأ خالـد نفسـه يتسـرب إلى نفسه شيء من القلق فقال:

"كمحـامٍ ليس لـدي مـا أقولـه .. .. لكـن كإنسـان لـدي الكثير لأقوله".

أمسـك خالـد بـذراع فـؤاد برفـق ليسـتنبت شـيئًا مـن الطمأنينـة في صحراء خوفه المظلمة وقال:

"العلاقة بيننا أعمق بكثير من علاقة المحامي وموكله .. .. وهـذا الشـعر الأبـيض الـذي نبـت في رأس كلينـا شـاهد علـى هـذه العلاقـة .. .. حدثني كصديق".

راح فؤاد عبد القادر في عالم بعيد وتكلم كما لو كان يصرخ من بئر عميق:

"منـذ أيام رأيت حلمًا فظيعًا كنت فيه حبيس كهف مظلم مليء بالخفافيش .. .. كان حلمًا فظيعًا تكرر مرات عديدة بالتفاصيل نفسها .. .. وصـار مشـهد الخفـافيش وهـي تلطـم وجهـي يطـاردني في صـحوي، بـل أحيانا لا يفارقني".

أخفى خالد تأثرًا واضحًا بدا على ملامحه وقال:

"أنت يمكن أن تكون معذورًا، إلى حدٍّ ما، فهذا حلم مخيف .. .. لكن ينبغي ألا يسيطر عليك".

"كيف لا يسيطر على يا خالد؟ لقد سمعت أصوات أجنحة الخفافيش وأنا أدخل هذا المبنى؟".

قطع خالد استرسال الحديث وقال:

"لولا ما سيطر عليك من توتر لما كان هذا المكان ملائمًا لدردشة من هذا النوع".

قاطعه فؤاد بنظرة منكسرة قائلًا:

"أدبك يمنعك أن تسمي الأشياء بأسمائها .. . ليس توترًا بل رعب .. رعب يا خالد".

"وأنا سأبدد لك هذا الرعب".

قالها المحامي وهو يدفع موكله برفق في اتجاه مكتب وكيل النيابة:

"لقد دخلت إلى وكيل النيابة قبل حضورك وناقشته .. بشكل ودي وعرفت أن المشكلة بسيطة بل مضحكة".

وسارا متمهلين نحو مكتب وكيل النيابة. وبلهفة من رد إلى الحياة من على منصة الإعدام قال فؤاد بلفهة شديدة:

"أرجوك يا خالد بدون مقدمات".

"اسمع يا سيدي .. .. اللحم البقري الذي استوردتموه أخيرًا نزل الأسواق مكتوبًا عليه (لحم بشري مجمد) .. ..

"يا نهار أسود"

انطلقت كالرصاصة الطائشة من بين شفتي فؤاد وتوقف بشكل لا إرادي واستند للحائط. وأكمل خالد كلامه:

"وطبعا أثار الموضوع رعبًا عند أول مستهلك انتبه للعبارة .. .. والتقطها صحفي فكتب خبرًا صغيرًا في باب مخصص للطرائف، والباقي يمكن استنتاجه بسهولة. .. .. وطبعًا جهات التحقيق تشددت في إجراءاتها بسبب حساسية الموضوع".

"الله يسامحك يا عم شفيق"

قالها فؤاد وانتقلت لهجته من الخوف للأسى الممزوج بالغضب:

"غلطة غبية سوف تكلفنا الكثير".

قاطعه خالد مدفوعًا بالإحساس بضيق الوقت:

"فؤاد بيه .. .. المهم الآن إغلاق التحقيق الرسمي وطبعًا قرار الإغلاق غير قانوني لكنه صدر ليوقف حالة الإثارة الشديدة التي صنعها الاهتمام الإعلامي، وكيل النيابة سيأخذ أقوالك وأقوال الخطاط .. محسن كان هنا وأرسلته ليستدعيه فورًا .. .. التكييف القانوني لن يكون مشكلة بإذن الله رغم غرابة الموقف كله .. .. وعموما وكيل النيابة لا يملك حفظ التحقيق إلا بعد تقرير المعمل".

وصار وجه فؤاد كالبحر الهائج يتقلب من إحساس لآخر .. .. وكلها أحاسيس عاصفة، وصرخ كمن لدغه عقرب:

"المعمل؟!"

وأصبح الحوار بينهما كمباراة تنس طاولة متوترة سريعة الإيقاع.

عاد خالد للهجة التهدئة وقال:

"هذه مجرد إجراءات يا فؤاد، والمُنتَج خرج من الحجر الصحي بمستندات سليمة".

استسلم فؤاد عبد القادر للتداعيات المتلاحقة بإحساس قدري عميق وحزين في آن، وقال بلهجة يائسة:

"وماذا أيضًا؟"

فرد خالد محاولًا إضحاكه:

"ثم تصدر وزارة الداخلية بيانًا رسميًا يوضح للناس أن ما حدث خطأ غير مقصود .. .. وهذا طبعا سيكون إعلانًا مجانيًا لم تحلم به".

وابتلعهما الكهف .. ..

2

ابتسم فؤاد ابتسامةً شاحبةً، مغالبًا مشاعره الهادرة، واتجه مع خالد إلى مكتب وكيل النيابة، وبدأت أصوات مختلطة تحجب عن كل

منهما صوت الآخر وفجأة وجدا أمامهما شابًا يسد عليهما الطريق ويفرض نفسه عليهما بصفاقة:

"خالد بيه"

والتفت ناحية فؤاد عبد القادر:

"أكيد حضرته فؤاد بيه عبد القادر".

أزاحه خالد بيده وهو يكمل حديثه:

"**بهي الأحمدي يا أفندم صحفي بجريدة (المشهد المصري)**".

وهمس خالد في أذن فؤاد وهما يتقدمان نحو المكتب المغلق ناصحا بعدم الإدلاء بأي تصريحات صحفية لأي شخص فالصحافة غول يمكن أن يبتلعه، وشفع خالد نصيحته بتأكيد أن هذا الصحفي بالذات هو الذي أثار كل هذه الضجة . .. وانفتح الباب وابتلع خالد وفؤاد إلى حيث المجهول.

لم ييأس بهي الأحمدي من إمكانية الخروج من هذه القضية بخبطة صحفية كبيرة فهو قبل أن يكون صحفيا ابن عبد الهادي الأحمدي أحد أكبر رجال الأعمال في مصر ويعرف كيف يفكر هؤلاء التجار وكيف يستنطقهم، وماذا تخفي سراديبهم:

"لولا هذا المحامي ابن الـ .. ولكن لا بأس .. .. أمامي وقت كاف حتى خروجهم من مكتب وكيل النيابة لأجمع بعض المعلومات عن فؤاد عبد القادر وشركته".

كثيرون ممن يعملون في هذا المبنى يعرفون بهي صحفي الحوادث الشاطر السخي خفيف الظل، وكلها أسلحة لها مفعول السحر. حوَّم بهي حول بعض كتبة النيابة وموظفيها فلم يخرج بشيء مفيد بسبب غرابة البلاغ ، وطال بقاء خالد وفؤاد بالداخل فاحتسى بهي عدة أكواب من الشاي مضطرا، فكوب الشاي والسيجارة والإكرامية مفاتيح مهمة تجعل الأفواه المغلقة تتكلم. لم تكن المشكلة في رغبة الناس في البوح بما لديهم بل كانت المشكلة أن ما لديهم بلا قيمة.

بدأ الجوع يستبد ببهي فغادر المبنى ليتناول غذاءه وفقد حماسه للقصة كلها وقرر أن يفبرك خبرا هلاميا عنها. وركب سيارته وذاب وسط الزحام.

القاهرة

لفحة حنين

1

دق جرس المنبه وفتح بهي عينيه بصعوبة ومد يده إلى المنبه ليغلقه قبل أن يغفو مرة أخرى ويستيقظ فيجد الساعة تشير إلى الحادية عشرة. رفع الغطاء عن جسده فأنعش البرد حواسه وجلس على طرف الفراش، أغمض عينيه ضاغطا على جفونهما بقوة أملا في مغالبة الصداع اليومي. شخصية بهي الحقيقية تبدو أكثر في وضوحا في شقته فهي ممتلئة بالأشياء الثمينة لكن دون معنى، فهو مغرم بالأشياء العابرة .. .. الأصدقاء .. .. الأفكار .... النساء .. حتى علاقته بالصحافة التي تبدو الشيء الوحيد الثابت هي الأخرى بدأت بصدفة وما زالت علاقة هاو بهواية ممتعة.

مد بهي يده على الكمودور المجاور للفراش والتقط الريموت كونترول وفتح التلفزيون، عبث بالأزرار حتى لفتت نظره فتاة جملية تقدم برنامجا رياضيا نظر بتمعن إليها .. ..لم يكن ما لفت نظره إليها كيفية أداء التمارين الرياضية بل جسد من تؤديها .. تحالفت الكاميرا معه فاستعرضت جسدها ببطء مثير. أطلق صفارة إعجاب مردفًا:

"**البرامج الرياضية تقدمت جدا !!**".

اتجه نحو المطبخ متثاقلًا .. وقف أمام الحوض المعدني نصف الممتلئ بالأواني المستخدمة .. أمسك إناءً صغيرًا .. .. سكب ما فيه من بقايا قهوة اليوم السابق .. وضع الإناء تحت الصنبور وأضاف البن والسكر دون حاجة إلى تركيز فقد اعتادت يده هذا الطقس اليومي .. .. وضع الإناء على النار ووقف ينتظر غليانه، فالقهوة بالذات لا تحتمل أي سهو في إعدادها حتى يكون لها "**وش**" يكمل تأثيرها البيولوجي في الجسد بالتأثير النفسي لطعم هذا الوش وسمكه.

خلال هذه اللحظات قفز إلى ذهنه منظر فؤاد عبد القادر وهو يهرب منه على باب وكيل النيابة وداخله إحساس غير مفهوم بالانقباض:

"**لا بأس .. كان يمكن أن نخرج من هذا الموضوع بخبطة صحفية .. خيرها في غيرها .. .. ولكن لماذا تلح على ذاكرتي ملامح هذا الرجل؟ شئ ما في ملامح فؤاد عبد القادر يذكرني بشهاب علم الدين .. ياه شهاب علم الدين .. نعم .. إنني لأول مرة منذ سنوات أرى شهاب في الحلم .. الحلم**" . . . .

وحاول جاهدا أن يتذكر تفاصيل هذا الحلم دون جدوى.

فارت القهوة فأطفأت الشعلة وأشعلت غضب بهي:

"**يووه**"

قالها وصب القهوة بفتور وانهالت عليه الذكريات:

"شهاب علم الدين .. .. ما الذي يحدث .. حادث غريب .. حلم أكثر غرابة ؟".

كان فتوره لصب القهوة ساخنة في جوفه كما يفعل كل يوم بابًا لدخول المزيد من الخواطر. ولأول مرة منذ أن حمل شهاب علم الدين هذا الشاب الأسمر ذو الملامح الحادة والنبرة الصادقة الثائرة حقيبته الصغيرة وغادر الشقة التي عاش فيها مع بهي سبعة أعوام لم يفترقا فيها كصديقين حميمين، ولم يلتقيا كعقلين مختلفين تمام الاختلاف، حتى أن بهي كان يشبه علاقتهما بعلاقة الاتجاهات المختلفة في إشارة مرور واحدة تجاورها دائم، واختلافها أيضًا دائم.

عاد بالذاكرة أربعة أعوام للوراء وتذكر الضمة الأخيرة على باب الشقة وهو يودع شهاب بالدعاء، وتأمل حياته للمرة الأولى منذ سنوات .. عندما قرر أن يعيشها كما هي وكما هو .. .. علاقات عابرة .. .. منبه يوقظ الجسد .. قهوة تركية غليظة القوام توقظ المخ .. ضوء صناعي للعمل ليلا .. .. ستائر كثيفة ليستطيع النوم نهارًا . . .

"ما بالنا نهرب من كل شيء طبيعي .. .. وما بالنا نفرح بهذا الهرب فرحًا أبله؟".

مد يده إلى فنجان من الخزف صب فيه القهوة وعلى وجهه علامات مزاج معتكر .. وضع القهوة على منضدة أنيقة عليها زخارف إسلامية محفورة حفرًا غائرا. كانت القهوة بلونها البني القاتم تجعل الفنجان

الأبيض يبدو كما لو كان حلقة بيضاء موضوعة على المنضدة، فاللون واحد تمامًا كأن المنضدة غمست في فنجان قهوة ضخم. ترك فنجان القهوة وخرج من المطبخ إلى الحمام . . وفعلت "**العكننة**" الأثر نفسه الذي تفعله القهوة، فهي أيضًا منبه قوي المفعول.

وقف أمام المرآة وركب شفرة في ماكينة الحلاقة ليحلق ذقنه، لأول مرة لا ينشغل بهي أمام المرآة بتهذيب شاربه وتفقد بشرة وجهه بإمعان شديد كما كان يفعل كل يوم. استدار وأغلق باب الحمام وخلع ملابس النوم وفتح الدش، فاجأته برودة الماء فابتعد برد فعل آلي، فتح صنبور الماء الساخن ونزل الماء على جسده حانيا .. .. استسلم بسعادة غامرة وجرف الماء الدافئ في جريانه أحاسيس مختلطة بالتوتر والإجهاد والتشتت .. وصفا ذهن بهي تحت الماء فأغلق عينيه واستسلم لخدر لذيذ. أغلق الدش وخرج من حوض الاستحمام ونظر في المرآة وقال بصوت مسموع لصورته في المرآة:

"وما عيب الطقوس اليومية ؟ .. .. إن هذا الحمام أروع طقس يومي عرفه الإنسان"

قهقه بشكل شبه هستيري:

"يومك أسود يا أستاذ بهي .. .. طالما بدأته بالتأملات فلن يمر بخير .. ولو كنت في بيت أبي الآن لوبخني أمي لأنني أتكلم في الحمام".

سكت لبرهة ثم بدا كما لو كان قد انتبه لما هو أخطر:

"أتكلم في الحمام .. .. أليس الأخطر أنني أكلم نفسي وهذه علامة من علامات الجنون الرسمي؟"

ودخل بهي في حوار مسموع مع نفسه:

"**وما المشكلة ؟ .. الجنون قرين العبقرية**"

"لا .. وهل تضمن يا سيد بهي أن يكون جنونك عبقرية .. .. الجنون الذي يحتفون به هو جنون أدباء الحداثة وما بعد الحداثة، أما جنونك فيمكن أن يكون (عباسية)".

التقط فنجان القهوة من المطبخ واتجه نحو حجرة النوم .. .. رشف رشفة من الفنجان ووضعه على الكومود وعلى وجهه إحساس بالقرف:

"قهوة بدون وش عدمها أفضل".

نظر إلى المنبه الموضوع على الكومود ووجد الساعة تشير إلى الثانية عشرة إلا الربع فارتدى في سرعة بهلوانية ملابسه التي لا تختلف كثيرًا عما في المكان .. .. أشياء جميلة أنيقة لكنها كلها في غير مكانها، منزل مؤثث بذوق راق تنقصه اليد التي تضع الأشياء في مكانها.

هرول إلى المطبخ أغلق محبس الغاز .. . . عاد مسرعًا والتقط أوراقا متناثرة وعلبة السجائر ودسها جميعا في الحقيبة دون تنظيم، أغلق الحقيبة وهو يتحرك نحو الباب والتقط المفاتيح وفتح لوحة الكهرباء وفصل

الكهرباء عن الشقة فانطفأ التلفزيون. أغلق الباب ودس المفاتيح في جيبه واتجه نحو المصعد.

2

استقر المصعد وخرج بهي في نشاط متجهًا للخروج من العمارة ألقى تحية الصباح على البواب الذي سبقه إلى سيارته الصغيرة ليرفع عنها الغطاء . . . فتح باب السيارة ووضع حقيبته على المقعد الخلفي وجلس خلف مقعد القيادة وأدار المحرك بينما البواب ينفض الغبار من على السيارة. وفي انتظار أن يسخن المحرك أدار بهي مؤشر الراديو وراح يتجول بين المحطات، أصوات مختلطة بين برامج أطفال وبرامج نسوية وأغاني من كل لون .. .. لفت نظره صوت مذيعة تتكلم بدلال أنثوي ظاهر، ضبط المحطة كانت المذيعة تتحدث عن بعض الغرائب والطرائف.

انطفأت لمبة إنذار المحرك فبدأ يحرك السيارة ببطء لينبه البواب الذي ابتعد ملوحا لبهي بالتحية من خلف الزجاج. خرج بالسيارة إلى الطريق ورفع صوت المذياع:

"ألقت الشرطة صباح أمس القبض على رجل أعمال تسبب في ذعر كبير بين المواطنين نتيجة خطأ طريف .. .. رجل الأعمال استورد لحما

بقريا محفوظا ونظم حملة دعاية ضخمة لترويج المنتج الجديد، وعندما نزل المنتج للسوق فوجئ المستهلكون الذين تهافتوا على شرائه بوجود عبارة (لحم بشري مجمد) على عبوات المنتج رجل الأعمال المشهور اعتذر عن الخطأ المضحك ووينتظر قرار النيابة بحفظ التحقيق أي أن الموضوع أصبح كله (مجمد)".

وأطلقت المذيعة ضحكة خليعة فأطلق بهي عبارة فالتة:

"يا بنت الكلب".

ومنحه الهدوء النسبي في الشوارع فرصة للانتقال بين محطات الإذاعة وتوزيع عبارات الاستحسان والاستهجان هنا وهناك.

من ميزات أن يعمل المرء صحفيا أن ينزل في موعد متأخر نسبيًا عن موعد نزول الموظفين إلى أعمالهم فيكون مصعد العمارة خاليا والشوارع أقل ازدحاما، ففي مدينة كالقاهرة ينتقل الناس كل الناس في موعد واحد تقريبا، ويصبحون في شوارعها كما لو كانوا شعبا بأكمله يهرب من جيش معاد .. أرتال من السيارات تتدفق في كل اتجاه وصيحات استنكار .. وأحيانًا سباب من نوافذ السيارات. وحافلات نقل عام مكتظة ببشر يطل خدر النوم من عيونهم وتطفح ملامحهم بالبؤس .. يبدون في عبوسهم كأنهم استيقظوا فزعين إثر هزة أرضية أخرجت الجميع إلى الشارع. دورة جهنمية تآلف الناس مع عذاباتها بصبر أسطوري عصي على التفسير.

طارده الخبر نفسه في محطة أخرى يذاع بصيغة ساخرة قريبة من السابقة فشعر بالتقزز الشديد وسرت في بدنه قشعريرة، وبدأ يجتاحه حدس بأن هذه القصة ستعترض طريقه مرة أخرى .. .. وفي شروده لم ينتبه إلى سيارة مسرعة تعترض طريقه وتطلق عجلاتها صوتا حادا يعيده إلى وعيه. تحمل ببرود عبارات قاسية من سائق السيارة الأخرى وبعض المارة وسار في طريقه وهو يتمتم:

"اليوم من أوله لا يبشر بأي خير .. .. ربنا يستر".

3

عاد بهي من العمل مشتتًا فاندفع للحمام بحثًا عن الهدوء والسكينة في دفء المياه .. خرج من الحمام فاندس تحت الفراش مستكينًا ومد يده للريموت كنترول ليستدعي صديقه الوحيد .. .. عبثت يده بالأزرار بحثا عن شيء ممتع .. .. ولم يجد أكثر إثارة من الإعلانات فهي في النهاية مشاهد متوالية لا يجمعها رابط، ولا تستحث العقل على التفكير في شيء وراءها. حرك مؤشر الصوت ليخفضه وامتدت يده إلى الوجبة الجاهزة التي جلبها معه وبدأ يأكل. والتفت إلى الهاتف بجواره

وتذكر أنه في الصباح خرج دون أن يفتح "**الأنسر ماشين**" ليسمع الرسائل الصوتية .

كانت هناك رسالة صوتية واحدة تتكرر لأكثر من عشر مرات، تنهدات نسائية حارة وجملة واحدة:

"يا عم رق .. يا سيدي ميل .. يا حبيبي ما يصحش كده".

أطربته الرسالة وشعر بزهو الانتصار:

"هذه بعض خسائر التأملات .. كان يجب أن أتصل بها لأراها الليلة .. سامحك الله يا عم شهاب".

وقبل أن ييأس بهي من أن يستمع إلى رسالة أخرى في الشريط المملوء بالتنهدات جاءه صوت رئيس القسم ملهوفًا:

"ألو .. .. ألو .. بهي إذا كنت في المنزل كلمني فورًا .. .. سأنتظر منك اتصالا بمجرد عودتك .. مؤنس .. سلام".

اعتدل بهي في جلسته وأعاد سماع الرسالة مرة أخرى كما لو كان غير مصدق، واكتست ملامحه بجدية شديدة:

"غريبة .. هذا لم يحدث منذ أن عملت في الجريدة .. ما بال المفاجآت تتوالى في هذا اليوم الغريب!".

رفع الغطاء عن جسده وفتح حقيبته الجلدية وأخرج منها فهرس أرقام التليفونات وعاد إلى السرير، لكن أقل استرخاء. طلب رقم مؤنس ثم

نظر في المنبه الموجود على الكومود أمامه فانتبه إلى أن الوقت تأخر، لكن صوت الأستاذ مؤنس رد بسرعة بما يعني أنه لم ينم:

"مساء الخير يا أستاذ مؤنس .. أنا آسف لأنني أطلبك في هذا الوقت لكنني لم أعد للمنزل إلا الآن".

صدق حدس بهي وكانت هناك بالفعل مفاجأة:

"كنت في انتظار مكالمتك ولم أنم . . . مفاجأة يا بهي .. الجريدة تلقت قرارا من وزارة الإعلام بحظر النشر في قضية اللحم البشري المستورد".

وجاء رد بهي ملتعثمًا:

"قضية إيه؟" . . . . أستاذ مؤنس .. أنا نفسي كنت في النيابة وكل الكلام كان عن خطأ غير مقصود .. أصبحت الآن قضية تجارة في لحوم بشر بالفعل؟. . . كيف؟".

وارتفع صوت بهي منفعلًا دون أن يقصد، وأوقفه مؤنس بلهجة صارمة:

"التليفون لا يصلح؟"

"لماذا؟"

"لـيكن .. .. في الصـباح بإذن الله أكـون عنـدك .. لا .. لا التاسعة بإذن الله".

أغلق الهاتف وتيقظت حواسه كلها وهو يحاول بصوت مسموع ترتيب الحوادث على نحو يعين على فهمها:

"خطأ في كتابة البيانات على منتج أمر لا يتكرر كل يوم لكنه وارد .. لكن أن تتحول المزحة التي أوردتها الجرائد والإذاعات ضمن الطرائف إلى حقيقة، فهذا غير مفهوم .. وما كل هذا الاهتمام والحذر في حديث الأستاذ مؤنس؟".

صمت لبرهة وثبتت نظرة عينيه ثم قال:

"لحم بشري . . يا نهار أسود . . هذا يومك يا شهاب .. .. كنت تتحدث عن عالم يأكل بعضه لحم بعض على سبيل المبالغة وأصبحت المبالغة حقيقة .. لكن لا .. من المؤكد أن في الأمر خطأ ما".

اختلط الفضول الذي هو مرض مهني – فوق كونه طبيعة بشرية – بالصورة التي كان شهاب يرسمها للعالم وكان بهي دائما يراها سوداوية متشائمة.

غادر بهي الفراش وهو يتمتم:

"يبدو أنه لا مفر" ..

اتجه إلى الدولاب وأخرج منه حقيبة قديمة تركها شهاب يوم غادر منزلهما المشترك لآخر مرة متجها لبيروت .. .. أوراق كثيرة لم يفكر بهي أن يقرأها أبدًا، كان يخاف أن تتبدل نظرته للعالم بفعل أفكار شهاب التي كانت .. أحيانًا تبدو غريبة .. وأحيانًا متشائمة .. وأحيانًا حادة ..

وغالبًا ما تكون خليطًا من هذا كله. فتح بهي الحقيبة فوجد مجموعة من الصور تجمعه مع بهي وأخرى تجمعهما مع زملاء آخرين. تستوقفه عيون شهاب ونظرتها الواثقة.

وبدأ يتصفح الأوراق، لا بحثًا عن شيء بعينه، بل بحثًا عن شيء لا يعرفه .. .. كان ممتلئا بالثقة بأن الأفكار التي طالما جادل صديقه فيها تحمل إجابات عن أسئلة كثيرة فشل في وأدها، أو وأدها وخرجت من تحت الرماد شاخصة تستعصي على التجاهل:

"لو جعل كل منا جلده حدود عالمه لتحول هذا العالم إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف .. أليس هذا كلامك يا شهاب".

وضع بهي الأوراق محاولا وقف متوالية الانفعال والقلق التي استولت عليه بعد مكالمة مؤنس متسائلًا:

"حتى لو صح ما قاله الأستاذ مؤنس بحذافيره .. هذه في النهاية جريمة فردية .. .. ولكن .. لو كانت جريمة فردية، فلماذا كل هذا الحذر الذي أبداه إزاء الحديث في التليفون؟".

عاد بهي إلى جلسته المسترخية على الفراش وأخذ حقيبة الأوراق بجواره وبدأ يتصفحها ويصنفها .. لم يكن يتخيل أن يكون شهاب شغوفا بالشعر كل هذا الشغف .. .. ربما لأن الشعر كان في سنوات الدراسة هو فقط ما يمكن كتابته على بطاقة تهنئة أو في رسالة غرامية لفتاة. حتى الشعر عندك له مفهوم مختلف ومذاق مختلف .. ..

ودخل بهي لأول مرة عالم شهاب علم الدين بعد أن حاول شهاب نفسه لسنوات أن يأخذه معه فيه، دخله زائرا مستكشفا، فاكتشف أن الكثير مما كان يقوله شهاب عن المسئولية الإنسانية الأخلاقية إزاء العالم أمر بدهي، وأن الكثير من الأفكار من كثرة ما تلوكها الألسنة في صياغات باهتة تفقد حرارتها.

لم ينتبه بهي إلى أن النهار قد أشرق منذ أكثر من ساعتين إلا عندما دق جرس الهاتف ورفع السماعة ليجد الأستاذ مؤنس على الطرف الآخر:

"صباح الخير يا أستاذ مؤنس".

ونظر في الساعة فوجدها تشير للثامنة صباحا. أكمل المكالمة بردود مقتضبة ووضع السماعة. اتجه للنافذة وأزاح الستائر عنها ولم يدهشه منظر الكون في هذه الساعة رغم أنه لم يره منذ سنوات اختلف فيه إيقاعه عن الإيقاع الكوني الطبيعي، بقدر ما أدهشه أن يقضي كل هذه الساعات مستيقظًا دون الاستعانة بفناجين القهوة ذات القوام الغليظ.

انكسرت حلقة الطقوس الصارمة من حوله في لحظة .. وشعر أنه أخف وأكثر حرية .. .. انطلق إلى الشارع حاملا حقيبته بعد أن ارتدى ملابسه دون أن يشعر تقريبا ، وترك سيارته حتى لا يضطر لانتظار أن يسخن الموتور، وهربا من أن يستجمع تركيزه المشتت ليقود السيارة في

شوارع القاهرة في ساعة من أقصى ساعات الذروة. اتجه البواب إلى السيارة ليرفع عنها الغطاء ولكن بهي لم يرد تحيته، بل لم يره .. .. واتجه للشارع. أوقف سيارة تاكسي وركب دون أن يشرح للبواب معنى التغيير في الموعد والطقوس. وانطلقت السيارة تقطع الشوارع المزدحمة ، بينما بهي الأحمدي يتحول فضوله بالتدريج إلى قلق.

4

انطلق بهي كالسهم داخلًا مبنى الجريدة دون أن يتوقف للتوقيع أو رد تحية موظف الاستقبال، كانت لهفته لمقابلة مؤنس لا تقل عن لهفة مؤنس:

"**من المؤكد أنك دعوت على لأنني أيقظتك مبكرا على غير عادتك**".

قالها مؤنس متلطفًا.

"**أنا لم أنم يا أستاذ مؤنس .. وأرجوك أن تشرح لي ما حدث دون أي مقدمات أو إبطاء**".

بدأ بهي حديثه من على باب الغرفة، وأطاح بحقيبته بعيدًا بغير اكتراث وجلس متحفزا أمام مؤنس:

"أنا غادرت النيابة بالأمس وفؤاد عبد القادر ومحاميه عند وكيل النيابة .. ولما تأخر خروجهما ذهبت لتناول الغذاء ونسيت الموضوع كله وعدت للمنزل في المساء .. . . فما الذي حدث منذ غادرت النيابة حتى الآن؟".

وبدأ مؤنس حديثه وبهي منتبه بكل حواسه:

"وكيل النيابة كان متجهًا لحبس فؤاد عبد القادر على ذمة القضية أولا لأنها قضية رأي عام . . . . المحامي أصر على اعتبار الأمر مجرد خطأ في كتابة البيانات، وبالتالي حدث بحسن نية، لكن تقدير حسن النية في نظر وكيل النيابة كان متوقفًا على نتيجة تقرير المعمل، وطبعًا أي وكيل نيابة تكون أمامه قضية رأي عام يتصرف فيها بيد مرتعشة ويميل للتشدد".

اعتدل بهي في جلسته وقال:

"طبيعي .. حتى الآن لا مشكلة".

مد مؤنس يده لعلبة السجائر الموضوعة أمامه وأشعل سيجارة وأشار لبهي بواحدة فأخذها دون تعليق ومؤنس يستمر في السرد:

"محامي فؤاد عبد القادر طلب من وكيل النيابة الإفراج فرفض، وثار نقاش قانوني انتهى إلى ضرورة الحصول على تقرير المعمل أولا .. .. وبدأ فؤاد ومحاميه اتصالات على أعلى مستوى، لأنهما اعتبرا أن حبس فؤاد على ذمة القضية إساءة لشخصه ولشركته".

وأراد بهي أن يقاطعه فأشار إليه مؤنس بيده وأكمل:

"أرجوك .. اسمع أولًا .. في النهاية تم الاتفاق على إجراء تحليل أولي في اليوم نفسه على أن تستكمل التحليلات بعد صدور قرار الإفراج عنه، قبل الطرفان هذا الحل الوسط، وكانت كل الأطراف تعتبر نتيجة التحليلات تحصيل حاصل .. المفاجأة كانت أن نتيجة التحليلات المبدئية سلبية وأكدت وجود بقايا لحم بشري في المنتج الذي يستورده فؤاد عبد القادر".

ولم يستطع بهي أن يكتم حيرته واستغرابه لما يسمع فقاطع مؤنس:

"ولكن فؤاد عبد القادر ومحاميه ليسا ساذجين ليطلبا هذه التحليلات إلا إذا كانا متأكدين من سلامة موقف فؤاد القانوني، كما أن فؤاد عبد القادر ذهب للنيابة بنفسه ولم يقبض عليه، كان أمامه فرصة كافية للهرب لو أراد".

تصرف مؤنس كما لو كان يتجاهل محاولة بهي لإخضاع ما حدث للتحليل المنطقي وألقى قنبلة أخرى:

"فؤاد عبد القادر أصبح خارج الموضوع تقريبا .. وربما بشكل نهائي".

وبدا الأمر أكثر استعصاء على الفهم بالنسبة لبهي فقال:

"هذا أغرب .. كيف وهو المستورد ؟ .. إنه المسئول الأول".

عاد مؤنس لسرد الأحداث في تتابعها المثير فقال:

"فؤاد عبد القادر أصيب بانفجار في شرايين المخ بمجرد علمه بنتيجة التحليل .. وهو الآن في المستشفى في غيبوبة تامة".

وألحت على بهي فكرة المؤامرة بشكلها الساذج وقال:

"وهكذا تدفن معه الحقيقة . . . ربما كان مجرد ضحية في لعبة أكبر منه؟".

"فؤاد عبد القادر لم يعد المشكلة .. والخيوط التي ظهرت خلال ساعات عقدت الموقف بدرجة لن تكن متوقعة".

وتساءل بهي:

"أية خيوط .. هل هي رواية بوليسية يا أستاذ مؤنس؟".

واستطرد مؤنس:

"النتائج لخطورتها الشديدة قبل إبلاغها للنيابة العامة تم إبلاغها لجهات عليا .. ويبدو أن هناك من تبرع بإبلاغ سفارة فرنسا التي دخلت الخط بسرعة طالبةً وقف النشر عن الموضوع".

وألحت الأسئلة على بهي فقاطع مؤنس من جديد:

"فؤاد عبد القادر استورد المنتج من تايلند فما دخل فرنسا؟".

"هذا مربط الفرس"

قالها مؤنس وتنهد وبدأ يتكلم بلهجة أقل إثارة مشيرًا بيديه على سطح المكتب كما لوكان خريطة مرسومة:

"المنتج المستورد تنتجه شركة فرنسية عابرة للقارات رأسمالها فرنسي وإدارتها في بيروت ومصانعها موزعة في عدة دول منها تايلند .. لكن العلامة التجارية فرنسية والشركة تعتبر تايلند مجرد مكان ملائم للتصنيع والتغليف بسبب الأيدي العاملة الرخيصة والتسهيلات القانونية".

وانتبه بهي متأخرا جدا إلى أن ما توفر لمؤنس من معلومات غزيرة عن موضوع كهذا محظور النشر فيه هو الآخر غريب فقال:

"ومن أين لك كل هذه المعلومات الدقيقة في هذا الوقت المحدود؟"

ابتسم مؤنس وقال:

"سؤال مهم لكن الإجابة عنه تأتي بعد إطلاعك على بقية التفاصيل".

واستطرد مؤنس:

".. حظر النشر يعني حظره في مصر فقط، وهو سيدفع الناس للبحث عن الحقيقة في الشائعات .. الأرجح أن تنتهي الدعوة القانونية بموت فؤاد عبد القادر .. أو بالعفو عنه لأسباب صحية ليس هذا هو المهم".

وتساءل بهي في هدوء أحدثته الصدمات المتوالية:

"فما المهم إذن؟"

واكتسى صوت مؤنس بنبرة حماسية واضحة وانتقل من على مكتبه ليجلس بجوار بهي وقال:

"المجد المهني .. .. وهذا يتصل بسؤالك عن مصدر معلوماتي، فهناك جهات عديدة منافسة لهذه الشركة، ومنها شركة عابرة للقارات أمريكية الجنسية قررت تمويل إيفاد صحفي لجمع معلومات عن الأمر، وسيكون الاتفاق من خلال وكالة أنباء عالمية تنشر سلسلة من التحقيقات المصورة عن حقيقة القصة المثيرة في صحف عديدة بلغات مختلفة .. أنا لا أستطيع السفر بنفسي لأنني مثقل بارتباطات عائلية ومهنية . . كما أن هذه المهمة تحتاج إلى شاب طموح مثلك . . . وقد رشحتك للسفر .. .. على أن أقوم أنا بتوفير معلومات من مصادر أخرى وأتولى صياغة المادة وإعدادها للنشر .. و.. .."

ووصل العرض المغري للحظة الذروة:

"والمكافأة المقترحة عشرون ألف دولار غير مصاريف السفر والإقامة. . .. والمكافأة ستكون مناصفة بيننا".

لم يفشل مؤنس في إثارة فضول بهي وحماسه، لكنه كان المستوى الشخصي على أعتاب تحول حقيقي جعله يفكر لأول مرة في حياته أن يتصرف انطلاقًا من استشعار مسئولية أخلاقية وإنسانية، صحيح أن العرض المغري الذي يقدمه مؤنس هو في النهاية جزء من آليات المنافسة الاقتصادية الشرسة التي لا قلب لها ولا أخلاق، لكن بإمكانه أن يحقق أهدافا يراها نبيلة ولا تتعارض مع أهداف ممولي المشروع.

أسباب كثيرة جعلته يعرف قيمة الصمت والتروي بعد أن كان مثالا للسرعة في الفعل ورد الفعل والانفعال، يتكلم بسرعة .. يحب بسرعة .. يشتهي بسرعة .. يمل بسرعة.

وطال صمته على غير المتوقع فباغته مؤنس بسؤال:

"هل أنت خائف يا بهي؟"

وخرج رده واثقًا:

"إطلاقًا .. .. ولكن الأمر كله مفاجأة كبيرة ومربكة .."

ركز بهي نظره على النافذة المفتوحة خلف مؤنس للحظات كأنه يقرأ خلالها:

"أنا موافق .. .. ما المطلوب؟".

وابتسم مؤنس ابتسامة المنتصر وقال:

"أرسل إلى بالفاكس الصفحات الأولى من جواز السفر وسأتولى ترتيب كل شيء".

نهض بهي وحمل حقيبته وغادر الحجرة وهو يلتفت إلى مؤنس :

"خلال ساعة على الأكثر تكون عندك .. .. وطبعا ستكون هناك جلسات قبل السفر للإعداد".

واختفى بهي سريعًا.

5

أسبوع عصيب مر على بهي غيَّر فيه جلده تغييرًا كاملًا .. كان لديه قناعة راسخ بأن خيط البداية هو في أوراق شهاب علم الدين فصحافة الفهلوة التي مارسها لسنوات لم تمنحه الإثارة التي كان يحلم بها وكان دائمًا يشعر أن ما بها إثارة "**مغشوشة**" تعتمد على سعة خيال الصحافي لا على قدرته على الوصول إلى ما يدهش القاريء فعلًا، بل أحيانا كان يشعر أن المزيد من الإثارة يتطلب بالضرورة القليل من رقابة الضمير و.. .. "**أعذب الشعر أكذبه**" تلك كانت من العبارات النادرة التي تعلمها من شهاب وحفرت في ذاكرته لأن تجربته الصحفية أثبتت علمته أنها قاعدة ذهبية في الممارسة الصحفية في مصر، ولولا يقينه بأن العرب الجاهليين لم يعرفوا الصحافة لظن أنها قاعدة مهنية حرفها الرواة.

غرق بهي الأحمدي في أوراق شهاب علم الدين فابتلعته وفتحت مسام عقله لشبق ضخم للمعرفة. كان السفر مغامرة مهنية للبحث عن المتاعب والمال والشهرة وأصبح لفحة نارية من الحنين أحرقت العاشق الذي دخل عالم العشق ببراءة ساذجة كبراءة الفراش. اختار بهي في لحظة

واحدة أن يحرق جسر التنهدات الذي التهم أكثر من عشرة أعوام من عمره وأن يعبر جسر القلق الذي فتح بابًا للمجهول والخطر وربما الموت ..

أمده مؤنس بأوراق مترجمة ترجمة عجلى عن الشركة الفرنسية وتنقل بين هذا الملف الصغير وبين أوراق شهاب، شيء ما بدأ يربط بينهما لا يدركه على وجه الدقة، وينتبه بهي في برقة حدس مفاجأة إلى وجود هذا الخيط الدقيق بين أوراق شهاب والملف الذي أعطاه إياه مؤنس.

وبدأ يبحث في أوراق الشركة الفرنسية التي استورد منها فؤاد عبد القادر صفقته المشئومة، اسم الشركة: **سامبل إتش كي (SAMBL.HK.)** أسسها عام 1890 مجموعة من الشركاء بينهم الجنرال سانت أرنو أحد قادة الجيش الفرنسي المتقاعدين. تولى رئاستها عام 1911 ابنه بيير، وتحت رئاسته توسعت أعمالها خارج فرنسا. ومنذ تولى رئاستها جورج بيير دي سانت أرنو عام 1955 وهي تدار من بيروت حيث اختار جورج أن يعيش.

"ليس مجرد قائد عسكري متقاعد ضمن مجموعة مستثمرين إذن".

تمتم بهي الذي أصبح دون أن يشعر يرى العالم بعيون شهاب علم الدين:

"**إنها ثكنة عسكرية فرنسية واصل قادة الاستعمار الفرنسي في الجزائر من خلالها حربهم لكن بطريقة أخرى وفضلوا التوقيع بالأحرف الأولى، فاسم الشركة مكون من الحروف الأولى من أسمائهم**".

ومرت أصابعه على الأسماء:

جي بليسيه

سانت أرنو

دي شانجارنييه

إم هيريسيون

جي مونتانياك

إي لاموريسيير

أر كافينياك.

شعر بهي أنه أمام جبل جليد عائم لم تكن تبدو منه إلا قمته الطافية على وجه الماء .. .. جبل جليد ضخم يكتسح كل ما يواجهه بلا رحمة .. .. ألقى الأوراق وفتح حقيبة شهاب كالمجنون .. أزاح الصور وقصائد الشعر بعيدًا، وبدأ يقلب في مسودة كتاب كان شهاب مشغولًا بإعداده قبل أن يتخذ قرار السفر لبيروت: "**فرنسا في الجزائر: رسائل الجنرالات والجنود**" .. لم يكن في حاجة للبحث كثيرًا فشهاب كان يعرفهم ويطاردهم ويجمع أدلة إدانتهم، حتى قبل أن يرتكب العم شفيق

خطأه الذي نزعت صدفته القناع عن عالم بأكمله .. إنهم جنرالات الحرب الفرنسية السابقين في الجزائر.

تسمر بهي على السرير وجاءه صوت شهاب مختنقا بعبرة بكاء حار:

"كتب الكونت ديريسيون في خطاب إلى ذويه : لقد كان الزوج من آذان الوطنيين يساوي عشرة فرنكات .. لقد عدنا ومعنا برميل مليء بآذانهم التي قطعناها من الأسرى" .. ..

وكتب مونتانياك: "لقد قطعت رأسه ومعصمه الأيسر ووصلت برأسه مثبتا على رمحي ومعصمه عالق ببندقيتي وقد أرسلته إلى الجنرال باراجوي الذي كان يعسكر بالقرب منا وإنك لا تتخيل كيف كان ابتهاجه بذلك، وكنت أحيانا أفرج همومي بقطع الرؤوس لا رؤوس الصبار بل رؤوس الرجال".

وكتب الجنرال سانت أرنو في خطاب إلى زوجته "إن بلاد بني منصر بديعة وهي من أجمل ما رأيت في أفريقيا فقراها متقاربة وأهلها متحابون، ولقد أحرقنا كل شئ ودمرنا كل شئ، .. الحرب !! الحرب !! أواه منها ما أكثر من هلك فيها من نساء وأطفال هاجروا إلى جبال الأطلسي فقضوا نحبهم فيها بين ثلوجها وبتأثير البرد والبؤس. .. .. إني أفكر فيكم جميعا وأكتب إليكِ يحيط بي أفق من النيران والدخان، لقد مررنا عند قبيلة اليراز فأحرقت أفرادها جميعا ونشرت حولهم الخراب، وأنا الآن

عند السنجاد أعيد فيهم الشئ نفسه ولكن على نطاق أوسع. لكأني في سرداب تكثر فيه الخيرات, وفي رسالة أخرى يقول "ما أجمل أشجار البرتقال التي سأعمل الآن على اقتلاعها إني أنشر اليوم الحرائق في ممتلكات ابن سالم وقراه".

أصبح الفراش الوثير أقرب إلى قفنذ ضخم . . . تقلب بهي. . . وتزاحمت الأفكار والمشاعر واستسلم لعالم الدم الذي دخله على غير موعد، هو الذي فر من عالم البزنس مع أبيه، بحثًا عن مهنة أكثر بريقًا وإنسانيةً، قادته تداعيات هذا اليوم العجيب إلى عالم من الأساطير المرعبة يقود بعضها إلى بعض. ورغم أن عالمه كصحفي هو ما يحدث الآن إلا أنه لم يستطع منع نفسه من الإمساك بالخيط الذي عثر عليه في أوراق شهاب ومن الواضح الآن أنه خيط متصل يجمع سانت أرنو وحفيده جورج بيير دي سانت أرنو.

دق جرس الهاتف فتذكر بهي أنه ينتظر مكالمة مهمة من مؤنس .. تبدد إيقاعه القديم لم يعد سابحا في فراغه المتخم بمشاغل وهمية وأشياء تافهة عارضة .. أصبح أكثر انشغالًا لكن أكثر سكينةً ويقينًا. كان مؤنس يتصل به ليطمئنه على تأشيرة السفر لباريس .. .. رفع بهي السماعة بلهفة وجاء صوت مؤنس خفيضًا محبطًا يخلو من الإحساس الغامر بالإثارة الذي طالما شاع فيه طوال الأسبوع الماضي:

"أهلا يا أستاذ مؤنس .. هل هناك جديد .."

صمت بهي وهو يسمع عبارة طويلة من مؤنس قبل أن يقاطعه قائلًا:

"أيا كان الأمر سأسافر على نفقتي .. .. لا داعي للاعتذار يا أستاذ مؤنس، أنا أقدر حساسية الموقف".

وضع بهي سماعة الهاتف وأغلق مصباح الغرفة .. واكتفى بمصباح جانبي صغير وأزاح الأوراق، وغطى جسده بغطاء خفيف ومد يده في حقيبة أوراق شهاب التي خرجت من الدولاب لتصبح جزءًا من حياة بهي بشكل دائم .. وأخرج منها شريط كاسيت احتفظ به منذ أن غادر شهاب الشقة .. لم يفكر قبل هذه الليلة في الاستماع إليه .. كل ما يذكره أن هذا الشريط سجل عليه شهاب بعض أشعاره بصوته وتركه في الحقيبة. . . مجرد تذكار .. كان في حاجة حقيقية لأن يستعيد صوت شهاب علم الدين حقيقيا طازجا لا من خلف حُجُب التذكر. وضع الشريط في جهاز التسجيل وضغط على زر التشغيل .. .. أغمض عينيه وجاءه صوت شهاب واضحًا صادقًا:

بيروت سيدةٌ
تعطر مفردات قصيدتي
وتنام فوق دفاتر الذكرى
إذا ملت عيون الثاكلات من البكاء

.. ..

بيروت
يا أجمل الأحلام في صحو وفي نوم
ويا شرف القبيلة
يا جرحنا الدامي وطفلتنا الجميلة
أحرقت أطفال المخيم كلهم
من أجل من ؟
وسرقة خارطة البلاد
وشارة اللقيا
وأغنية الوطن
وتركتنا جزرا مشتتة
وأحرقت السفن .

63

بيروت

..وتعطرت للموت

1

لم يكن مطار بيروت مفتوحًا فاضطر بهي الأحمدي للسفر جوًا إلى دمشق، ليسافر منها إلى بيروت برًا، وكان الإجراء الاحترازي الوحيد الذي استطاع اتخاذه أن يسافر صباحًا بحيث إلى دمشق بعد الظهر ويستطيع السفر منها نهارًا. ركب الطائرة حاملًا عددًا من مجلة لبنانية استلها من بين أوراق شهاب آملًا أن يكون فيها أية، معلومات مهما كانت سطحية، عن هذا البلد الذي يزوره للمرة الأولى، وقد اجتهد خلال الساعات الأخيرة قبل السفر أن يستعين بما استطاع من نصائح الناصحين وخبرات المجربين إلا أنه لم يظفر إلا بتحذيرات ومعلومات مبتورة يشفعها أصحابها بعبارة:

"**هذا طبعا قبل الحرب الأهلية أما الآن فلا أعرف ما الذي تغير**".

استقر بهي على مقعده وركز عينيه على المشهد خارج الطائرة وتلاشت التفاصيل من حوله .. .. كان التغير الأكثر عمقا في بهي تحوله من الأشياء إلى الأفكار . . .عاد بالذاكرة سنوات للوراء عندما غادر

شهاب علم الدين الشقة لآخر مرة حاملا حقيبته الصغيرة مسافرا إلى بيروت. اختار أن يذهب إلى الخطر بنفسه:

"فات أوان النقاش يا بهي .. .. وسيأتي يوم تعرف فيه أنني كنت على صواب".

جملة ختم بها شهاب محاورات طويلة .. .. كان واضحًا أمام إصراره أنها مناقشات لا طائل من ورائها .. ولكن العبارة تبدو الآن وهي ترن في أذني بهي كما لو كانت تميمة خفية علقها شهاب على الباب ولم تخلع رداء تخفيها إلا الآن .. فهو يقرأها ويسمعها، إنها تتحداه وتناديه في آن واحد.

"أي صواب؟"

قالها بضيق وهو يحتضن صديقه الأثير لمرة قد تكون الأخيرة وهمس شهاب في أذنه:

"أعرف يا بهي أن فيك نبلًا ونقاءً سأفتقدهما كثيرًا".

اهتزت الطائرة في صعودها فانتبه بهي وأدار وجهه عن النافذة وقال بصوت خفيض تعتصره المرارة:

"كيف يفقد العالم بهجته وجماله هكذا في لحظة .. .. كيف يبدو وحشيًا قاسيًا .. .. هكذا بلا أقنعة؟"

اصطدمت عيناه بفتاة جميلة شقراء جلست بجواره دون أن يشعر وهو في شروده القصير .. .. استيقظت حواسه فشم العطر الأنثوي المثير

.. .. وجال ببصره من خصرها الذي يحيط به حزام الأمان إلى ساقيها البيضاوين المشربين بلون وردي شفيف، واستدار كأن شيئًا لم يكن. كانت مثل هذه المصادفة في وقت آخر كفيلة بأن توقظ القناص القابع في أعماقه .. ..

لكنه فجأة فقد كل مواهبه في القنص والصيد ونسي نصب الفخاخ .. وهكذا الإنسان إذا زهد فلم ير في فريسته إلا قطعة لحم:

"أه .. .. كم أصبحت هذه الكلمة مرة !!"

كان مشهد الأنثى يبعث في نفسه بهجة ونشوة سحريتين .. .. ولأول مرة يشعر أن النزال حُسم لصالح شهاب علم الدين .. حسمه وهو غائب عن ميدان العركة بالضربة القاضية. لكن المهزوم هذه المرة لم يشعر للهزيمة بمرارة، بل كانت ميلادًا جديدًا ..

ولكل ميلاد مخاض .. ولكل مخاض ألم.

2

لمسته رفيقة الرحلة الشقراء برفق والتفت إليها فوجد المضيفة تدفع أمامها عربة الطعام وتسأل بابتسامة اعتادت أن ترسمها لكل مسافر،

فابتسامات المضيفات جزء من خدمة السفر وهي الأخرى مدفوعة الثمن.
خيرته المضيفة بين اللحم والدجاج فامتعض لأن كلمة "**لحم**" أصبحت كالوخز المؤلم في جنبه:

"دجاج"

قالها ولم يزد، ومد يده ليفتح طاولة الطعام المثبتة في المقعد.

تناول الوجبة في فتور وازدردها كأنه يبتلع حجارة .. .. لم يغره التغليف الأنيق، ولم يجبره جوعه الذي فرضه عليه تعجل الساعات الأخيرة قبل السفر على أن يأكل بشهية. كان يجتاحه إحساس بأنه يمر بتجربة روحية كتلك التي روى له شهاب أن الفيلسوف المسلم الكبير أبو حامد الغزالي مر بها قبل أن يدون كتابه الشهير: "**المنقذ من الضلال**".

"لك الآن أن تهنأ يا شهاب .. فكل ما كنت أسخر منه في حواراتنا معا وأنا سعيد بجهلي هو الآن شوك في حلقي".

ومنحته النعومة الشديدة التي تتحرك بها الطائرة فرصة للتذكر:

"هل تعرف شاعرًا اسمه صلاح الدين عبد الله؟"

"لا .. لم أقرأ في الشعر الجاهلي"

قهقه شهاب حتى استلقى على ظهره:

"كيف يكون جاهليًا واسمه صلاح الدين عبد الله؟"

"أنت دائمًا تأتي بأسماء غريبة وأفكار أغرب كأننا نعيش في عالمين منفصلين".

"تقول هذا ونحن ننتمي لجيل واحد ونسكن شقة واحدة ؟ .. بينما المسافات لم تعد تعني شيئا .. .. فالحضارات تداخلت والعصور أيضا ، وهذه الحقبة من التاريخ البشري أشبه بمتحف مفتوح للتاريخ الإنساني بعصوره المختلفة .. .. فهناك حضارات وأفكار تعبر حاجز الزمان والمكان وأديان تتصارع وتتحاور و .. ".

وقاطعه بهي باعتراض صاخب:

"ما كل هذا يا عم شهاب حضارات ومتاحف وسلاحف .. يا عم أنا آسف لك ولشاعرك العظيم .. يا نهار اسود .. قل لي من هو صلاح هذا وارحمني".

"صلاح الدين عبد الله شاعر مصري كفيف لم ير الدنيا بعينيه فأبدع في تخيلها، كتب رباعيات مبدعة بالعامية المصرية يقول في إحداها:

أنا عمري ما شربت الخمرة

هاتقوللي عفة؟

ها أقولك لأ

لكن أخاف اسكر مرة

أغلط وأنطق كلمة حق".

....

اختلطت الأزمنة والأشياء وصارت الأفكار خارج نطاق السيطرة فاستسلم بهي لحالته وتمتم:

"أكيد يا عم شفيق أنت أيضًا تخليت عن حذرك وشربت خمرًا، فأخطأت ونطقت كلمة حق .. .. لكن كلمتك لم تتسبب إلا في شقائي أنا".

لم يكن بهي في حاجة إلى سماع تنبيهات طاقم الطائرة عن ربط الأحزمة وفكها، فمنذ أن ألقى جسده على المقعد وحزام الأمان مربوط، وليته وجد وسيلة ليربط عقله داخل حدود مشهد الطائرة زمانا ومكانا .. .. ليت حزام الأمان كان يستطيع. عندما اقتربت الطائرة من الهبوط كان يشعر أن جسده مشلول وجرب بنفسه ما كان يسمعه من شهاب عن الزهاد الذين يعزفون عن الدنيا حتى يتخلصوا من عبء أجسادهم على عقولهم وأرواحهم ..

كانت الكلمات أكثر صدقًا وجديةً مما يظن، فبسكون جسده صار عقله يغلي كالمرجل ويضطرب كالمصروع، وكم مرة تمنى أن تطاوعه دموعه في هذه الأيام العصيبة فيبكي وهو يسمع صوت شهاب:

"البكاء شيء نبيل يا بهي".

"عرفت يا شهاب لكن متأخرًا .. .. عرفت أنني عشت أعوامًا أفر من إنسانيتي .. وأنني أدمنت مخدرات رخيصة .. أتألم الآن ألمًا بشعًا وأنا أحاول تخليص جسدي منها .. واضح أن النبل خمسة أحرف نستطيع أن ننطقها بسهولة أما أن نمتلكها فـ .."

انفتحت خزائن الحقائب ولم يعد الوقت مناسبًا، لا للتأمل ولا لتمني البكاء، فتح بهي الحزام وسار في الممر الطويل بين المقاعد .. .. أنهى إجراءاته تقريبًا دون أن ينبس بكلمة .. .. وخرج من صالة الوصول يبحث عن سيارة تاكسي. اقتربت منه إحداها، واسند يده على الباب المجاور للسائق، وسأله:

"**بيروت**".

رمقه السائق بنظرة متسائلة وتردد قبل أن يرد:

"**مشوار صعب يكلفك** ..."

وقاطعه بهي وهو يفتح الباب الخلفي ويضع حقيبته:

"**المهم أن نصل قبل أن يحل الظلام**".

والتقت نظرتهما في مرآة السيارة:

"**الطريق ليس طويلا المشكلة في الحواجز الأمنية.. .. وسأوصلك لأقرب مكان ممكن . . . وإذا كان هناك اشتباكات أو. . .** "

ورد بهي باقتضاب وهو يضغط على الحروف:

"**المهم أن نصل قبل أن يحل الظلام**".

وطبعا لم تكن هناك فرصة لأن يبدي أي تأفف من حالة السيارة العتيقة ولا لأن يقارنها بسيارته الجولف التي أهداها له أبوه في عيد ميلاده قبل الماضي.

استقر بهي في المقعد الخلفي وفتح حقيبة اليد التي يحملها وأخرج منها مجلة لبنانية ليتصفحها هربا من طوفان الأفكار المتزاحمة وبحثا عن أية معلومة يمكن أن تفيده وبين صفحات ممتدة من البكائيات المكئبة على بيروت المحطمة توقف أمام شهادة عن مجزرة صابرا وشاتيلا. . . الشهادة كتبها دونالد فاجنر أمريكي عضو مجلس الكنائس الأمريكي وانفصل تدريجيا عن السائق والسيارة والطريق:

"دخلت المخيم . . . كان على يساري مبنى سكني من ثمانية طوابق يستخدم مركزًا إسرائيليًا للقيادة ويمكن من خلاله مراقبة منطقة واسعة وبالفعل كان هناك جنديان من جيش الدفاع الإسرائيلي يحملان نظارات معظمة ويراقبان المنطقة . . . . في العشرين من سبتمبر وبعد رحلة طويلة إلى بيروت الغربية أنا واثنين من أعضاء إحدى المنظمات المسيحية الأمريكية وفي هذه الأثناء كنا قد سمعنا بالمذابح التي حدثت في مخيمات اللاجئين، وكنت أسير في طريق كورنيش المزرعة وكأنني أسير في شوراع درسدن بعد الحرب العالمية الثانية، فالمنتزه الممتلئ بأشجار الصنوبر كان يحمل آثار القصف المكثف حيث كانت الأشجار محطمة ومحترقة، وفي يوم الحادي والعشرين سمعنا ورأينا في المخيم ما يعجز لساننا عن وصفه!!!"

وأحس بهي الأحمدي أنه أصبح محاطًا بجبال من الأشلاء الآدمية تمتد من مكتب فؤاد عبد القادر إلى قلب بيروت ومن يدري إلى تمتد أبعد من ذلك، اختلس نظرة للطريق وعاد إلى التركيز في المجلة:

"كانت مجموعة من فتيان الكشافة اللبنانيين يحملون جثث القتلى على نقالات وتولى أحد البلدوزرات إهالة التراب على بعض الجثث الأخرى فيما يشبه المقبرة الجماعية . . . وقبل أن نتقدم كثيرا داخل المخيم كانت رائحة الجثث المتعفنة تجبرنا على تغطية أنوفنا وأفواهنا بالمناديل".

وأحس بهي كما لو كانت رائحة الجثث المتعفنة تهب من سطور المجلة وتزكم أنفه فرفع عينيه عن المجلة بحركة لا إرادية مقتربا بأنفه من النافذة كمن يبحث عن نسمة هواء نقي، وأخذ نفسا عميقا.

بدأ السائق يبطئ السيارة ونظر إلى بهي طالبا منه إن كان معه شئ يريد إخفاءه أن يخبره ليتولى أمره لأنهما يقتربان من المنفذ الحدودي، وابتسم بهي ابتسامة مفعمة بالمرارة:

"اطمئن ليس معي أي شيء من هذا النوع"، "ابق إذن صامتا ودعني أتصرف".

لم يكن المنفذ الحدودي مزدحمًا، لكنه كان مخيفًا، فالكل متوتر وكم الجنود المسلحين أكبر بكثير مما توقع بهي. مد السائق يده في تابلوه السيارة وأخرج علبتي سجائر مستوردتين وضعهما أمام الزجاج الأمامي للسيارة وطوى ورقتي عملة من فئة العشرة دولارات بعد أشار بهما بوضوح لبهي ليعلم أنهما سيضافان إلى الأجر الذي سيدفعه لأنهما جواز المرور الحقيقي. . . . أوقف السيارة ونزل ملوحا لأحد الضباط:

"كيفك أبو نزار".

واحتضنه ودس النقود في جيبه بشكل جعل بهي يشعر بالرعب، فلم يتخيل أبدا أن تكون الرشوة في مكان حساس كهذا نصف علنية كما يرى وعلى الحدود بين دولتين أحداهما تحترق في آتون حرب أهلية. . . . تخيل للحظات أن يصبح في لحظة متهما بجريمة رشوة في بلد غريب وفي هذا الظرف الحساس، وأعانه على استعادة توازنه سريعًا، تذكره كوب الشاي والسيجارة والبقشيش التي طالما فتحت أفواه موظفي النيابة المغلقة.

ابتعد الصوت وبهي يراقب حديثهما ثم صافح السائق ضابط المنفذ الحدودي وعاد إلى السيارة وقادها ببطء ليقترب منه جندي الجوازات ودوى صوت السائق:

"**توصيلة عائلية . . . ابن خالي**"

ومد يده بعلبتي السجائر للجندي الذي ختم الجواز دون أن يقرأ بياناته، بينما اثنان من الضباط يستلقيان في استراحة المنفذ أمام التلفزيون، ودخان الحشيش يتصاعد كثيفًا من النافذة متحديًا دهشة بهي الذي عاد لصفحات المجلة دون تعليق.

بينما كانت تتوارى شيئا فشيئا ملامح المنفذ الحدودي بألوانها القاتمة بينما السائق يستطرد في سرد قدراته الخارقة على اجتياز المنفذ دون أية إجراءات متحديًا "**شطارة**" المصريين . . . وبهي يعود بالتدريج لاسترخائه وعالم الأسئلة والذكريات والهواجس بعد أن راحت السكرة وجاء القصف والخطر والموت دون قناع.

بعد زمن لم ينشغل بهي بتحديده توقف السائق واستدار داعيًا بهي للنزول فحمل حقيبته ودس في يد السائق أجرًا جعله يقفز فرحًا، بينما بهي يتحرك مبتعدًا عن السيارة، كما لو كان يعرف وجهته والسائق يناديه بصوت عال:

"**لا تبتعد عن هنا يا أستاذ . . . من هذا الميدان يمكنك أم تجد سيارة توصلك**".

توقف بهي بعد خطوات قليلة ولم يطل انتظاره فعرف سائق تاكسي لبناني كهل بخبرته أنه ضيف لا يعرف بيروت .. ..

فتح بهي الباب ووضع حقيبته على المقعد الخلفي وجلس بجوارها، كان يخشى أن يضطره جلوسه في المقعد الأمامي بجوار السائق لمجاراته في حديث مستطرد حول أي شيء وكل شيء فجلس في الكرسي الخلفي وسأله السائق بعد سيل من التحيات:

"**فندق يا أستاذ؟**"

"**نعم**".

ولم يزد.

3

أطل بهي من نافذة السيارة يتفحص بيروت، بحثًا عن تلك المدينة التي عرفها من أفلام السينما المصرية فلم يجدها، التوتر يخيم على كل شيء .. .. آثار القصف بكل الأحجام على المباني وفي الشوارع، وعلى ملامح الناس القليلين الذين رآهم في رحلة السيارة من المطار للفندق، إنهم يحاولون منذ سنوات أن يبعثوا مدينتهم لتخرج كالعنقاء من الرماد. وفي مأساتها تبدو بيروت متحفًا لتاريخ الحرب في العالم كله .. والضحايا متنوعون .. .. بشر .. .. مدارس .. .. مستشفيات .. .. منازل .. .. المدينة الرياضية .. ..

وبعد المدينة الرياضية بقليل توقف السائق أمام فندق، لم يهتم بهي بقراءة اسم الفندق ولا السؤال عن مستوى الخدمة .. . . نزل غير مبال بالسائق الذي نزل مسرعًا ليفتح باب السيارة ويحمل عنه الحقيبة، فتحرك بهي متجاهلًا، ودس في يد السائق عدة دولارات كانت كفيلة بأن يتهلل فرحًا. اتجه بهي مباشرة لاستقبال الفندق وأشار لموظف الاستقبال:

"**غرفة مفردة**".

وضع جواز السفر أمامه، فأخرج الموظف استمارة وبدأ يملؤها من بيانات جواز السفر، بينما بهي يطلق عينيه خارج الفندق ليتأمل مشهد أكياس الرمل التي تحيط بباب الفندق والمسلحين الواقفين أمامه بأرديتهم الداكنة .. .. مشهد يذكر الناس الذين لم يكن لديهم سبب للنسيان بأن الحرب لم تنته. لم تفلح المعاملة الودود من موظف الاستقبال والابتسامات

الكثيرة التي بذلها لبهي في أن تنتزع من بين أسنانه كلمة واحدة. وسأله الموظف بأدب جم:

" كم يوما ستقيم يا سيدي؟"

"أسبوع".

قالها، والتقط جواز السفر واتجه نحو المصعد الذي كان مكانه ظاهرا لا يحتاج إلى سؤال، أشار الموظف إلى أحد عمال الفندق ليحمل حقيبة الضيف إلى غرفته، وجاءه صوت موظف الاستقبال كما لو كان يخرج من بئر سحيق:

"غرفة 303 .. الدور الثالث".

لم يكن أمام بهي ليفلت من ضجيج الطواحين الدائرة في رأسه إلا أن ينام .. دخل غرفته فوضع الحقيبة على السرير واتجه مباشرة للحمام .. منحه الماء بعض السكينة .. لف جسده بالمنشفة وخرج من الحمام، فتح حقيبته فأخرج منها ملابس النوم فارتدى قطعة واحدة منها، وألقى جسده على السرير .. .. وراح في خدر عميق.

بيروت

المجهول

1

استيقظ بهي على رنين الهاتف في حجرته وجاءه صوت موظف الاستقبال باللهجة اللبنانية المميزة ، ورد بهي باختصار:

"في الغرفة .. .. شكرًا".

رفع الغطاء عن جسده شبه العاري واتجه للحمام فصب الماء على جسده في سرعة، وخرج ليرتدي ملابسه ويتأمل الغرفة للمرة الأولى .. كانت بعد فتح الستائر مشرقة بشمس بيروت الحبيبة الدافئة بينما المشهد خارجها تعلوه كآبة لا تخطئها العين .. .. الحرب أقل احتدامًا لكنها دخانها خانق ورصاصها الطائش لا يتوقف إلا لينطلق مرة أخرى. صحيح أن الكثيرين كانوا يرون أن ما يحدث هو الفصل الأخير لكنه الفصل الأكثر مأساوية، فبحثًا عن الحسم سالت دماء كثيرة وأصبحت المعارك مجازر إبادة شاملة، أكثر من كونها صراعًا عسكريًا من النوع المألوف.

"ترى .. .. أين أنت في هذا العالم المضطرب يا شهاب"؟

كان شيء ما يجعل بهي يفكر في شهاب دائمًا، كما لو كان متأكدًا من أنه ما زال حيًا، الآن فقط وهو في قلب بيروت أصبح الأمر

موضع شك وتساؤل .. لكنه تساؤل حائر محير يحمله صاحبه ويكتوي بعذاباته ولا يعرف إلى من يتوجه به.

"نحن لا نختار آباءنا لكننا نختار أصدقاءنا".

تذكر كلمات شهاب وتمتم:

"نعم .. .. وأحيانًا نختار أيضًا نهاياتنا الفاجعة .. أو تختارنا وتصر علينا وتجبرنا على الاقتران بها".

دق الباب فاتجه إليه في خطوات ثابتة .. .. فتح لعامل الفندق الذي قدم له طعام الإفطار ووضعه أمامه بنظام ووضع الفاتورة، وقع بهي الفاتورة وسلمها للعامل الذي انسحب في هدوء.

استعاد بهي شيئًا من توازنه، وبدأ يعود إلى طبيعته، أكل باعتدال بعد أن كاد أن يتحول فعليًا إلى مضرب عن الطعام، تحت وطأة التحولات المفاجئة المتلاحقة التي داهمته طوال الأيام الماضية. تناول عدد اليوم السابق من جريدة "**الحياة**" التي لم تعد تصل بانتظام لمسقط رأسها بيروت، منذ غادرتها إلى لندن بحثًا عن الأمان .. وكثير من الفنادق اللبنانية أصبحت تعتبرها طقسًا يوميًا لروادها، حتى لو لم تتوفر في موعد صدورها.

ما كان يشغل بهي في المقام الأول الخطوة الأولى في هذه البلدة التي لا يعرف فيها أحدًا .. ولم تكن غربته المشكلة الوحيدة بل كانت المشكلة الأكبر حالة بيروت المخيفة، فهي أشبه بغابة مظلمة كثيفة الشجر

تتوزع الفخاخ القاتلة في أرجائها .. وهي لا ترحب بأحد ولا تغلق بابها في وجه أحد. لكن بهي ما إن دخل من بابها حتى شعر أنه أمام عشرات الأبواب لا يعرف إلى أين يؤدي أي منها، وإن لم يفقد بعد حماسه ورغبته في خوض التجربة.

سلاح واحد كان يمنح شهابًا إحساسًا بالأمان النسبي هو مبلغ كبير من المال منحه إياه أبوه على مضض لنفقات السفر، فرجل الأعمال الكبير لم يبتلع أبدا فكرة أن يضيع ابنه الأصغر زهرة عمره في الجري وراء حلم الصحافة، بينما يملك بالفعل أن يحقق كل ما يحلم به غيره من نجاح ومال إن التحق بإمبراطورية أبيه الضخمة.

كانت المرة الأولى منذ سنوات التي يحتضن فيها الأب ابنه ويغمره بحنان حقيقي منذ أن غادر منزل الأسرة، جريًا وراء "**المجد**" كما كان أبوه ينطقها دائمًا ساخرًا. تمنى أبوه له التوفيق ، وقال منبها ومنتبها إلى خطورة المغامرة:

"**ليتني ما أرخيت لك الحبل من البداية في هذا الطيش .. .. سافر يا حمار**".

وضحكا ضحكة من القلب منحت بهي إحساسًا ظن لسنوات أنه في غنى عنه .. بل طالما فر منه معتبرا أنه حنان خانق.

2

خرج بهي من المصعد، متجهًا إلى استقبال الفندق، وسلم مفتاح الغرفة واتجه للباب الخارجي الذي امتدت يد العامل الواقف أمامه لتفتحه بشكل آلي .. توقف على رصيف الفندق للحظات .. .. وتحركت صوبه سيارة تاكسي ببطء، فتح الباب وركب وطلب من السائق التوجه للسفارة المصرية. السيارات المهشمة المتناثرة على جوانب الطرق كانت تشبه لوحات الفنانين السيرياليين في وحشيتها وعبثيتها، حاول السائق أن يتحدث مع بهي الذي وجد نفسه – لأول مرة – منذ أن ألقي به في هذا الكابوس مستعدا للكلام. سأله عن بيروت ومعاناتها، وأجاب الرجل بصوت قلق وعيون زائغة، ومزج إجاباته بشيء من المزاح أطلق من صدر بهي ضحكة هي أقرب إلى نفثة مصدور.

توقفت السيارة أمام السفارة المصرية التي تركت عليها أجواء الحرب مسحة من التوتر والتوجس .. دس في يد السائق عدة دولارات بشكل ينبئ بوضوح عن قلة خبرته بالمدينة. استقبله موظف الاستقبال بفتور مصري صميم، فالمصري بالنسبة لموظف سفارته في الخارج هو غالبًا عبء، وفي بيروت التي كان بها غير قليل من المصريين عندما بدأت الحرب

كانت طلباتهم مرهقة ولم تكن السفارة قادرة حتى على القيام بواجباتها الروتينية، فهناك سيل لا ينقطع من الطلبات طلبات للترحيل على نفقتها، ومساعدات مالية لا تملك السفارة توفيرها، وطلبات شحن جثث موتى واستعلام عن مفقودين. أعطاه الموظف نموذجًا جاهزًا فرضت ظروف الحرب، إعداده فهو ليس عرفًا في أية سفارة مصرية أخرى، وأصر الموظف أن يملأه بهي قبل أن يجيب عن أي تساؤل.

غاب الموظف لدقائق وعاد حاملًا كوبًا خزفيًا تتصاعد منه الأبخرة، وجلس خلف مكتبه بعد أن رمق النموذج الخالي من البيانات بنظرة غير ودود. بادره بهي بلهجة آمرة مشفوعة بتقديم الكارت الشخصي:

"أريد مقابلة الملحق الإعلامي".

نظر الموظف في البطاقة ورفع سماعة الهاتف وطلب رقمًا، ثم تحدث مع الطرف الآخر مخبرًا باسم بهي وصفته. أغلق الهاتف واصطحب بهي إلى ممر يقود إلى داخل المبنى وأصبحت معاملته أكثر ودًا. توقف أمام باب مغلق وطرق طرقتين وجاءه صوت من الداخل يأذن له في الدخول.

نهض رفيق صابر – هكذا تشير لوحة موضوعة على مكتبه – من خلف المكتب واستقبل بهي ودعاه للجلوس:

"مؤكد لم تشعرك المعاملة في الخارج بالراحة .. هذه أجواء عصيبة بدلت كل شيء".

كان توضيحًا لا اعتذارًا، لكنه منح بهي قدرًا من التفاؤل بأن رفيق شخص يمكن التفاهم معه والاستعانة به. بعد التعارف بدأ رفيق يوجه الأسئلة المتوقعة لضيفه، وفكر بهي هل يكون المدخل الأنسب جورج بيير دي سانت أرنو أم شهاب علم الدين؟ أيبدأ بالبحث عن المجهول الذي صار معلومًا أم عن المعلوم الذي لا هو معلوم ولا مجهول بل طيف مؤرق، حضر قسرًا واحتل المساحة الأكبر من حياة بهي؟.

حكى بهي القصة كلها لرفيق وطغت شخصية الديبلوماسي على مشاعر الإنسان .. .. فالابتسامات محسوبة .. .. والمفاجآت الصارخة في القصة هي مجرد كلمات، رشف رفيق المشروب الدافئ وانتقل من الأريكة التي كان يجلس عليها في مواجهة بهي، وجلس على مكتبه في إشارة واضحة إلى الحاجز الزجاجي الرسمي الذي يقف بينهما:

"اسمع يا أستاذ بهي .. .. الأمر فيه خيوط كثيرة يجب فصلها عن بعضها البعض .. التحقيق الرسمي في قضية اللحوم ليس لنا به صلة .. ولم يطلب منا رسميًا أي شيء بشأنه، وحتى يحدث هذا نحن بعيدون عنه تمامًا ..".

"أما موضوع صديقك شهاب علم الدين، فقدرتنا على مساعدتك عليه محدودة".

قالها وهو يدون بيانات دخول شهاب إلى لبنان:

"وبخبرتي المحدودة في هذا البلد صديقك تطوع مع أحد أطراف الحرب .. وإذا توفرت معلومات أخرى فقد نستطيع الاهتداء إلى مصيره" .. ..

ورفع عينيه عن الأوراق وابتسم لبهي بود صادق:

"اطمئن هذه ليست مقدمة للاعتذار .. .. أعدك أن أساعدك على قدر ما أستطيع".

وضع بهي فنجان القهوة من يده وتأهب للانصراف وشجعه جو اللقاء على أن يسأل رفيق بشكل مباشر وهو يتأهب لمغادرة مكتبه:

"وبماذا تنصحني؟"

تحرك رفيق من وراء مكتبه وصافح بهي بحرارة ونظر في عينيه بعمق متخليا عن عيون الديبلوماسي الزجاجية:

"قبل أن أعمل في الخارجية، كنت صحفيًا .. وأستطيع أن أعرف ما يشغلك الآن .. لكنني أنصحك بالحذر الشديد .. .. جورج بيير دي سانت أرنو ليس مجرد رجل أعمال .."

وبدأ رفيق يضغط على الحروف بشكل محسوب وموحي:

"إنه غول .. .. غول يمكن أن يبتلعك بلا رحمة .. فهو تاجر أغذية .. وسلاح .. وسلام وثقافة وكل شيء، ولا تكاد توجد بندقية في لبنان إلا وضغطت يده على زنادها يومًا ما".

لم يكن بهي أكثر إحساسًا بالرغبة في الإقدام على خوض التجربة من هذه اللحظة وكانت ملامحه تعكس ذلك بوضوح:

"نصيحة ثمينة جدًا".

لم يجد غير هذه الكلمات القليلة المعبرة ليرد بها على كلمات رفيق التي قالها وهو واقف على باب الغرفة، وقبل أن يمد يده ليفتح باب الغرفة لخروج بهي قال له:

"هذه الحرب أكلت كثيرين .. وفضول الصحافة جنى على كثيرين أرجو ألا تكون منهم .. الوكالة الصحفية التي كانت تمويل رحلتك وتراجعت مؤشر شديد الأهمية لدرجة حساسية الموضوع .. .. انتظر مني اتصالا خلال يومين . . . ولا تتخل عن ثلاثة أشياء في كل تنقلاتك: جواز سفرك .. وأموالك .. والحذر".

3

لم يكن الاهتداء لمكتب جورج بيير دي سانت أرنو في بيروت صعبا .. وقبل أن يبدأ بهي رحلة البحث كانت رسالة قصيرة تنتظره عند عودته من السفارة في غرفته في الفندق تدعوه لمقابلة مدير العلاقات العامة بشركة **سامبل إتش كي (SAMBL.HK)**، وبلا غموض أو إثارة،

الدعوة محددة للقاء مسئول العلاقات العامة في العاشرة من صباح اليوم التالي في المبنى الإداري للشركة، و"**ستمر سيارة من الشركة في التاسعة والنصف صباحا لتوصيلكم لضمان سلامتكم الشخصية**"، فكر بهي في المخاطر لوقت قصير وبدت العبارة الأخيرة في الرسالة كما لو كانت تحمل تهديدا مبطنا – أو هكذا ظن لدقائق – ولكنه كان يعرف عن نفسه جيدا أنه يفتقر للحي الأمني وبالتالي لم يكن في حاجة لوقت طويل ليقرر قبول الدعوة.

كانت مفارقة مدهشة أن يشعر بهي بقدر كبير من السكون النفسي في بيروت النائمة على القلق بينما لم يشعر بالقدر نفسه في القاهرة .. .. ربما لأن الأشياء الواضحة مريحة حتى لو كانت قاسية أو صاخبة. أخلد بهي للنوم وهو يمني نفسه بلقاء يشفي غليله ويجيب عن الكثير من الأسئلة التي تؤرقه، كان يشعر وهو في الليلة الثانية في هذا الفندق أنه مقيم منذ فترة طويلة، فأصبح أكثر استرخاء رغم النصائح المتوالية من إدارة الفندق وسائقي التاكسي ورفيق بضرورة الحذر المميت.

تحركت السيارة ببهي من أمام الفندق ودخلت شارعًا شديد الأناقة، عرف فيما بعد أنه شارع الحمراء .. .. أحد أفخم شوارع بيروت. ومرت السيارة من أمام ميرديان الحمراء الغاص بالنزلاء فكان شديد الأناقة لا يبالي بالحرب، على غير ما توقع. توقفت السيارة وصحبه السائق إلى مبنى فخم تزينه لافتات **سامبل إتش كي** (**SAMBL.HK.**) بأحجام

مختلفة .. .. المكان كله مصقول بشكل ملفت، مرآة للذوق الفرنسي، والناس تتحرك في رشاقة آسرة.

قاده السائق إلى مكتب الاستقبال فاستمهله الموظف لدقائق .. .. جلس على مقعد جلدي أسود فاحم مريح بجانبه منضدة صغيرة عليها منفضة سجائر وشعار معدني للشركة وكتيب تعريفي معد بعناية .. كانت الدقائق التي قضاها كافية لأن يتأمل التناقض بين البريق الأخاذ للأشياء ومعانيها، وتذكر ذلك الشيخ الجزائري الذي قيل له إن الفرنسيين جاءوا الجزائر لنشر الحضارة فقال في عفوية مذهلة: **"ولماذا أتوا بكل هذا البارود؟"**.

بدأ بهي يرى الأشياء بعيني شهاب علم الدين، ولم تعد تبهره العبارات الجوفاء عن عاصمة النور .. وبرج إيفل .. وفلاسفة التنوير التي تستعين بها هذه الشركة ذات الأذرع الأخطبوطية، تناول كتاب التعريف وقلب صفحاته العربية وتجولت عيناه بين السطور، استوقفه أن للشركة جهودا في دعم مؤسسات إغاثية غربية وبرامج ذات شعارات إنسانية .. .. ولم يكن بإمكانه فك كل الألغاز دفعة واحدة.

انتقل بهي إلى مكتب مدير العلاقات العامة فرنسي من أصل عربي ناعم نعومة الأفاعي ينزلق بشكل زئبقي فلا تكاد تمسك به .. تلك مهارته الوحيدة. رحب ببهي ودخل إلى الموضوع مباشرة:

"في حدود علمي سبب زيارتك المباشر صفقة اللحوم التي أثارت ضجة في مصر قبل أسابيع .. .. ونحن على يقين من أنك كصحافي نزيه يحترام الأعراف المهنية لن تقبل أن تكون سلاحا في يد شركة منافسة للتشهير بنا .. نقدر الصحافة إلى أبعد حد، ولذلك فضلنا أن نتصل بك مباشرة لنضع كل الحقائق أمامك".

"يبدو أن التعاقدية الغربية الصارمة ستكون لها فائدة لأول مرة".

هكذا حاول بهي أن يفهم المدخل المباشر الذي اختاره رجل العلاقات العامة الفرنسي المتعرب.

"الذي حدث مسيو بهي خطأ إداري واجهناه بكل حسم، والذي حدث أن منظمات إغاثية عديدة دخلت مخيم صابرا وشاتيلا بعد الكارثة وكانت الحالة مأساوية".

.. .. تجمعت على وجه بهي سحب قاتمة من الغضب الأسود، فانتفض واقفا وقاطع محدثه بغلظة قاسية:

"دخلتم ماذا؟"

"أستاذ بهي".

قالها مهدئًا بنبرة تهديد مبطنة .. ..

"الحرب نحن لم نصنعها .. بل صنعها اللبنانيون مدعومين بأطراف عربية وغير عربية".

وتحدث الرجل بتحد:

"أرجو ألا تنسى أنهم في حرب المخيمات كان هناك لبنانيون يحاصرون إخوانهم اللبنانيين وأن المحاصرين أكلوا لحوم الكلاب والقطط، .. .. وفي آخر الشوط استصدروا فتوى دينية للموجودين تحت الحصار في حرب المخيمات تجيز لهم أكل لحوم البشر".

وبدأ بهي يحدث نفسه:

"هذه المقدمة لا تبشر بخير .. .. أو كما يقولون عندنا في مصر (أول القصيدة كفر)".

عادت لهجة الفرنسي المتعرب إلى هدوئها وبدأ يبني على المقدمة السابقة موجها كلامه لبهي بلهجة تقريرية لا تخلو من تودد:

"نحن شركة تجارية، وقد اكتوينا بالحرب ربما أكثر من غيرنا، دورنا في المخيمات كان إنسانيًا محضًا، لم تكن وراءه أية أبعاد سياسية أو تجارية".

"أكمل"

قالها بهي وهو يجلس متأهبا لسماع كارثة أبشع من كل ما سمع وكل ما تخيل.

"الحالة في المخيم كانت بالغة البشاعة والجثث كانت أكواما .. طلب منا، كشركة تعمل في مجال حفظ اللحوم ونقلها أن نقدم معاونة لم نتأخر فيها .. وخلال أيام كانت الجثث تملأ ثلاجاتنا .. كانت هناك ضرورة بيئية في المقام الأول".. ..

ابتلع بهي كلام محدثه وإن لم يستطع أن يبلع ريقه، وملأ الغضب عينيه وقال:

"دون تبريرات . . . حتى الآن أنت لم تقل ما الخطأ غير المقصود الذي حدث؟".

مد الرجل يده بعلبة شيكولاتة فاخرة لبهي ليأخذ منها قطعة فدفعها بهي بيده دون أن ينطق وعيناه تتقدان بالغضب.

واستطرد الرجل:

"بعض الجثث استخدمت في تجارب تتصل بحفظ اللحوم دون علم إدارة الشركة .. .. تجاوز في استخدام الصلاحيات من إحدى الإدارات الفرعية".

وبشكل لا شعوري تقلصت معدة بهي وانعكست حالته على ملامح وجهه الذي اكتسى بلون الدم واحتقن احتقانا شديدا .. .. وبدأ بهي يتقيأ بعنف.

توقف الرجل عن الكلام واستدعى الأمن من هاتفه الداخلي، فجاءوا لحمل بهي الذي أغمي عليه وراح في غيبوبة.

بقي في غرفة مجاورة حتى انتهت الإسعافات الأولية .. أفاق بهي وجاءه بعد قليل الفرنسي المتعرب يرمقه بنظرة هي خليط من الإشفاق والازدراء، وبادره قائلًا:

"نحن ندرك شعوركم الطاغي بالاختلاف عنا .. . . ولهذا فضلنا أن نصدر الجزء الأكبر من هذه اللحوم الناتجة عن مشروع تجريبي إلى الدول الأوروبية كمعلبات مخصصة لتغذية الحيوانات الأليفة . . . . والجزء القليل الذي صدر إلى بلادكم جاء إليها عبر مافيا معروفة تشتري منتجات مماثلة من الأسواق الأوروبية بأسعار زهيدة وتعيد تغليفها وتصديرها".

استدار الفرنسي المتعرب وأطلق عينيه خارج النافذة مستطردا:

".. وفي النهاية، هذا الخطأ الذي أثارك لدرجة القيء يا مسيو ثمن طبيعي للتقدم .. .. فلا تقدُّم دون ثمن وتضحية وقسوة. . . طبيعتكم العاطفية من أهم أسباب رؤيتكم السلبية لنا . . . نحن نجرب فنصيب ونخطئ . . . وبالتالي نتقدم .."

ثم حدق في عينيه متحديًا:

".. أما أنتم فالزمن يتجاوزكم وأنتم مقيدون بقيود العاطفة والقداسة . . . . إنني أحدثك باعتبارك مثقفًا سيعي معنى ما أقول" ..

وصمت بهي للحظات .. ..

ثم بصق في وجهه!!

بيروت

باريس

1

اكتشف بهي بعد أن صحا من نومه في اليوم التالي أنه لم يكن في كابوس وهو ما ضاعف صدمته .. .. جاء من مصر بحثا عن إثارة وأسرار عصية يطاردها وتراوغه، فإذا هو أمام منظومة متكاملة من العري الوقح، أشياء عارية بلا أقنعة ولا حجب وعريها الرخيص يفقدها كل معنى. بهذه البساطة يتحدثون عن الإنسان وينزعون القداسة عن حياته وموته، ويتجرءون عليه، ويقدمون لحمه للكلاب والقطط معلبًا. حالة من التبلد لم يجد مفرا منها، ربما هي التي أنقذت بهي من أن يصاب بانهيار عصبي حاد، وجاء اتصال تليفوني من السفارة المصرية كان فيه صوت رفيق مكسوا بوقار حزين:

"وهل هناك أسوأ مما سمعت؟!"

كان سؤالا منطقيا سأله بهي لنفسه وهو يتلقى دعوة رفيق لزيارة السفارة في أقرب وقت. كانت نهاية زيارته للشركة الفرنسية تشعره أن نهاية الرحلة أسرع مما كان يتصور بكثير .. .. ارتدى ملابسه وصار العبوس

ملمحا ثابتا لوجهه الذي أضافت له الصدمات تجاعيد كان يحتاج رسمها لسنوات.

لم ينسه عامل الاستقبال بعد الزيارة الأولى فقاده مباشرة لمكتب الأستاذ رفيق .. .. اكتسى وجه رفيق هذه المرة بمسحة إشفاق وجلس بهي وهو لا يرى شيئًا في العالم يمكن أن يكون أسوأ مما سمع. سأله رفيق عن أخبار مهمته وأدهشه أن يعلم بأمر زيارته للشركة، وترك رفيق التحفظ الرسمي وقال لبهي:

"زيارتك لنا أنقذتك من الموت المحقق .. .. لأنهم فضلوا أن يتفاهموا معك مباشرة على أمل أن تغلق الملف طواعية وتعود .. .. وبمجرد أن زرت السفارة أصبح التخلص منك في الظلام وادعاء الجهل بوجودك ابتداءً، أمرًا عسيرًا".

بدأ شيء من الهدوء يعود لبهي وأحس أن شجاعته كانت في محلها، وتساءل:

"والآن؟"

رد رفيق مؤكدًا ما سبق أن قاله في الزيارة السابقة:

"السفارة ليست طرفًا في الأمر على الإطلاق .. .. أنت هنا مواطن مصري أسدي لك النصح بصفة شخصية ومن منطلق إنساني، وما سأقوله لك عرفته بالأمس فقط ومن صديق لبناني نافذ أطلعني بصفة

شخصية على بعض الخلفيات الحقيقية للقصة. . . لكن في البداية قل بالضبط ماذا حدث في زيارتك لمكتب أرنو".

قص بهي القصة على رفيق وشعر للمرة الأولى أنه يتخلى عن السمت الرسمي الذي وسم لقاءهما الأول، فتخلى هو الآخر عن شيء من البروتوكول وطلب منه أن يقدم له كوب شاي .. ..

انطلق رفيق يفض بعضًا من الغلالات التي تحجب الحقيقة عن عيني بهي:

"لم يكن الأمر خطأ كما قال لك الفرنسي الذي قابلته .. بل تجارة منظمة بدأت بالصدفة . . . . فمع استمرار سقوط الضحايا في الحرب الأهلية، فكَّر شخص ما في الحصول على أعضاء بشرية منهم للمتاجرة بها في تجارة الأعضاء الرائجة، واقتضى هذا تنظيم العمل".

بدا بهي وهو يسمع كما لو كان شخصًا آخر، أصبح كالجراح الذي اعتاد رؤية الدماء وإعمال المبضع في الأجساد، كانت ملامحه تتأثر بشكل محسوب لا تشنج فيه. وأكمل رفيق:

"منظمة إغاثية توفر الواجهة .. . . وميليشيات توفر الوصول للجثث في الوقت المناسب . . . وشبكة علاقات دولية تضمن الاستفادة على أكمل وجه .. .. مجرد تجارة في تقديرهم . . . . لا مؤامرة ولا صراع سياسي".

وأحس بهي بمزيد من الوضوح، منحه إحساسًا بأنه وضع يده على الجانب الأكبر من الحقيقة.

"وعلى فكرة يا أستاذ بهي . . التحقيق في مصر لا يعنيهم كثيرًا، لأن الشركة التي صدروا لها في حدود معلوماتي كانت هي الأخرى ضحية .. لكن ما يهمهم هنا .. .. أن بعض الكبار متورطون وفتح الملف سيزيد الأمور تعقيدًا . . . . . ولهذا السبب".

وصمت رفيق وبدا مترددًا، فشجعه بهي:

"تكلم دون أدنى حرج يا أستاذ رفيق، وتأكد أنني مقدر شجاعتك .. .. وممتن أشد الامتنان لما قدمته لي رغم قيود عملك الرسمي".

كان رفيق يفرغ آخر ما في جعبته:

"أنصحك بمغادرة لبنان فورًا .. .."

وقبل أن يصدر عن بهي رد أو استفسار قال رفيق:

"لو أنهم لو علموا بصلتك بشهاب علم الدين لقتلوك فورًا".

عاد بهي إلى توتره، فانتفض واقفًا بشكل لا شعوري ووقفت الكلمات في حلقه . . . ضغط على الكلمات بصعوبة حتى لا تخرج صارخة صاخبة:

"شهاب علم الدين ؟! لقد كدت أنسى موضوع شهاب .. .. ولكن .. لو علموا بصلتي بشهاب علم الدين لقتلوني. . . لماذا؟".

وجاء رد رفيق حازمًا:

"نعم شهاب علم الدين دفع حياته ثمنًا لمحاولة فضح هذه التجارة القذرة .. .. وقد تخلصوا من جثته بالطريقة نفسها، ولو علموا لقتلوك كما قتلوه".

وكأنها كانت قنبلة فجرها رفيق في وجه بهي فشطره نصفين .. كل صدمة كان يمكن احتمالها إلا أن يكون هذا مصير شهاب علم الدين ..

صرخ بهي كالمجنون وأمسك بملابس رفيق وهو يهزه بعنف ويصرخ:

"لا .. .. لا .. لا .. شهاب .. لا .."

وتمزقت ملابس رفيق بين يديه، وامتدت ثورته ليحطم كل ما يمكن تحطيمه من أثاث في المكتب.

2

في غرفة بمصحة نفسية بضاحية المعادي الهادئة بالقاهرة انتهت الرحلة سريعا .. .. ولم يكن لديه بعد رحلته هذه أي فضول لأن يعرف كيف نقل إلى هذا المكان بل ربما كره الفضول كله . . . وتمنى لو لم يدخل هذا العالم ولم يحلم بأن يتوج في بلاط صاحبة الجلالة، لكنه أبدا لم يتمن أن يشطب من حياته صفحة شهاب علم الدين بكل مراراتها.

تحمل بهي حتى خارت قواه وأصيب بانهيار عصبي حاد.

لم يكن هشا أو قليل الاحتمال، بل كان ما واجهه فوق طاقة البشر . . . سقطت الأقنعة عن عالمه كله في تجربة تركت فيه أثرا يشبه أثر نصل حاد تمسك به يد مقاتل بدائي قوية.

جاءه زوار كثيرون لكنه كان شاعرًا بسعادة خاصة لزيارة أبيه، والأغرب أن الأب كان لديه إحساس غامض بأن بهي تغير فيه شيء ما . . . . إلى الأحسن .. .. الحوارات بينهما كانت مقطوعة دائما والمسافة كانت تتسع بمرور الزمن.

في كل مرة كانت الزيارة تختتم بمونولوج لا يتغير:

"هل ينقصك شيء؟"

"ينقصني أن أراك في أقرب وقت".

ثم يتبادلان تحيات تقليدية.

لكن بهي ما إن استعاد شيئًا من حيويته وبدأ يتماثل للشفاء حتى تغيرت إجابته على سؤال أبيه وجاءت مشفقةعو هذه المرة بطلب، ولأسباب عديدة كان عبد الهادي الأحمدي مدفوعا لإجابة طلب ابنه. نظر بهي إلى أبيه بعينين غائمتين بدموع تمناها طويلا وتأبت عليه:

"شهاب كان يدافع عنا جميعًا يا أبي . . . فتخلينا عنه حيًا وأكلناه ميتًا".

انهمرت الدموع منهما ساخنة صادقة هادرة وارتفع النشيج، وأكمل بهي محدثا والده بالنبرة الباكية نفسها:

"ساعدني يا أبي أن أجمع ما يمكن أن يكون رفات صديق عمري وأدفنها".

3

لم يكن عبد الهادي الأحمدي يتخيل أن تنتهي مساعيه لشد ابنه إلى عالمه عالم المال والسطوة إلى أن يدخل هو نفسه عالم بهي في تجربة غريبة كهذه، وأن يجد نفسه في قلب هذا الإعصار، لكنه في النهاية يتصرف في المقام الأول كأب .. ..

وقد منحته دائما علاقاته المتشعبة بالمسئولين . . . كل المسئولين . . . كما هو عالم البزنس في أي بلد متخلف قدرة على الحصول على ما يريد، كل ما يريد. لكن ما كان يريده المرة كان يلفه الغموض ويتصف بالغرابة الشديدة.

ما استطاع أن يعرفه في النهاية بعد أيام من الاتصالات والاستفسارات أن ما يطلبه ليس مستحيلا لكنه مشروط، والشرط الأهم ألا تتحول الجنازة إلى قضية رأي عام بأي صورة حتى لا يعاد فتح الملف.

. . أما المشايخ الذين رجع إليهم فرغم كثرتهم لم يتفق منهم اثنان على رأي فمنهم من أجاز دون شروط ومنهم أجاز بشروط ومنهم من حرم . .

كان اسم عبد الهادي الأحمدي كفيلا بإقناع المسؤلين بتسليمه البضائع المصادرة التي لم يتم التصرف فيها بإعدامها كما هو مألوف، فبسبب حساسية الموقف وغرابة الجريمة بقيت اللحوم التي فجرت هذه القنابل المتوالية في وجه بهي تحت التحفظ وظل وضعها معلقا . . . وبدا طلب عبد الهادي الأحمدي في نظر بعض المسؤلين حلا لمشكلة ظلت لفترة دون حل.

كانت جنازة هزيلة غريبة . . . . حُملت العلب التي اختلطت فيها لحوم جثث آدمية مجهولة بلحوم بقر في مجموعة من النعوش كأنهم ضحايا مذبحة وهم بالفعل كذلك. وانطلق المشيعون القليلون الذين كانت قلتهم نتيجة تعهد عبد الهادي بأن يتم الأمر دون ضجيج وفي أضيق نطاق.

وبين المشيعين، سار بهي الأحمدي متثاقلًا يغالب رغبة عارمة في البكاء والتقيؤ ويبدو كمن يحمل العالم على كتفيه .. .. سار بهي لا يكاد يشعر بأحد ويستند لأول مرة منذ سنوات على ذراع أبيه.. .. أفكار ومشاعر كثيرة متضاربة تتنازعه ومشاهد كثيرة تتوالى أمام عينيه ويلح عليه سؤال واحد:

"ترى .. .. إلى أي علبة من هذه أشعر بالحنين إذا تذكرت شهاب علم الدين؟".

تمت

تنويه لازم

أولًا: الجنـرالات الفرنسـيون الـواردة أسمـاؤهم في الروايـة شخصـيات حقيقية، ورسائلهم الواردة بها نصوص حقيقية منقولة من مصادرها التاريخية.

ثانيًا: الشاعر صلاح عبد الله شخص حقيقي والأبيات المنسوبة إليه في الرواية هي من ديوانه المخطوط "رباعيات".

ثالثـا: قصـيدة "بـيروت" مـن أعمـال كاتـب الروايـة ومنشـورة في أحـد دووابنه.

ممدوح الشيخ

عضو اتحاد كتاب مصر.

أولاً: ترجمات في معاجم وموسوعات

** ترجمة في الطبعة الأولى من: معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، (مؤسسة البابطين، الكويت).

** ترجمة في الطبعة الأولى من: معجم أدباء مصر، (الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر).

** ترجمة في الطبعة الأولى من: الموسوعة الكبرى للشعراء العرب المعاصرين: 1956، 2006، إعداد وتقديم: فاطمة بوهراكة، المغرب، 2009، برعاية الشيخة أسماء بنت صقر القاسمي.

** ترجمة في الطبعة الأولى من: معجم الأدباء: من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2002، 1424 هجرية.

مؤلفاته وترجماته من الإنجليزية إلى العربية

أولاً: الترجمات من الإنجليزية إلى العربية:

علم نفس وادي السليكون، كاتي كوك، 2020، (تحت الطبع).

رأسمالية مصاصي الدماء، المجتمعات المنقسمة والمستقبلات البديلة، باول كينيدي، **2018**، (تحت الطبع، مدارات للنشر، مصر).

الدين والرئاسة الأمريكية، مجموعة مؤلفين، **2017**، (تحت الطبع).

العلمانية أصل الإرهاب والاستبداد الحديث، مختارات ترجمها وقدم لها، **2012**، دون ناشر.

ثانياً: دراسات في الظاهرة الدينية

** المسلمون ومؤامرات الإبادة، مكتبة مدبولي الصغير، مصر، **1994**.

** الإسلاميون والعلمانيون من الحوار إلى الحرب

الطبعة الأولى، دار البيارق، الأردن، **1999**.

الطبعة الثانية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن.

** الجماعات الإسلامية المصرية المتشددة في آتون **11** سبتمبر: مفارقات النشأة ومجازفات التحول، مكتبة مدبولي، مصر، **2005**.

** مراجعات الإسلاميين (الجزء الأول)، تأليف بالاشتراك، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الإمارات، سلسلة كتاب المسبار الشهري، العدد السادس والثلاثون، ديسمبر **2009**.

** السلفيون من الظل إلى قلب المشهد، دار أخبار اليوم، مصر، **2012**.

** دراما محمد رمضان والإرهاب: الملائكة والشياطين والعدالة الناجزة، توزيع: مكتبات أخبار اليوم (مصر)، **2019**.

ثالثاً: مؤلفات إبداعية منشورة

** نقوش على قبور الشهداء، ديوان شعر، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر، 1996.

** الحلم المسروق (ديوان شعر بالعامية)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر، 2003.

** الندى والموت (ديوان شعر)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر، 2003.

** عاصمة للبيع (مسرحية)، دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة، دولة الإمارات، 2000.

** القاهرة.. بيروت.. باريس (رواية)، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2006.

** إن الغريب حزين حيثما كانا: سيرة لم يكتبها موسى ابن ميمون (رواية)، توزيع: مكتبات أخبار اليوم (مصر)، 2019.

رابعاً: مؤلفات أخرى منشورة

** أشهر الأحلام في التاريخ، مكتبة ابن سينا، مصر، 1993.

** التنبؤات والأحلام من الخرافة إلى العلم، دار التضامن، لبنان، 1996.

** ثقافة قبول الآخر، مكتبة الإيمان، مصر، مكتبة جزيرة الورد، مصر، 2007.

** مدخل إلى عالم الظواهر الخارقة، مكتبة بيروت، سلطنة عمان، شركة دلتا، مصر، 2007.

** التجسس التكنولوجي: سرقة الأسرار الاقتصادية والتقنية (دراسة في المجتمع ما بعد الصناعي)، مكتبة بيروت، سلطنة عمان، شركة دلتا، مصر، 2007.

** ثقافة السلام، دار ومكتبة الغد، مصر، 2009.

** عبد الوهاب المسيري: من المادية إلى الإنسانية الإسلامية، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، رقم 7، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، لبنان، الطبعة الأولى 2008.

** طارق البشري؛ القاضي.. المؤرخ.. المفكر.. وداعية الإصلاح، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، لبنان، الطبعة الأولى 2011.

خامساً: تأليف بالاشتراك

** إيران – مصر: مقاربات مستقبلية، تحرير: توفيق شومان، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، سلسلة الدراسات الإيرانية/ العربية، رقم 1، الطبعة الأولى، 2009.

** يوميات الثورة المصرية، (تحرير: أحمد عبد الحميد)، مركز الجزيرة للدراسات، قطر، 2011.

** الحركات الإسلامية في الوطن العربي، (إشراف: الدكتور عبد الغني عماد)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2013.

** السعوديون الشيعة: الفكرة والإشكاليات، مركز صناعة الفكر، السعودية، 2015.

** المجتمع المدني السعودي ؛ الملامح.. والأدوار، مركز صناعة الفكر، السعودية، 2015.

** الليبرالية في السعودية (الفكرة، الممارسات، الرؤى المستقبلية)، مؤسسة الإنتشار العربي (لبنان)، مركز صناعة الفكر للدراسات والبحوث (السعودية)، الطبعة الاولى: 2013.

سادساً: أعمال حققها

** ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي (الشوقيات)، تحقيق، مكتبة الإيمان، مصر، مكتبة جزيرة الورد، مصر، 2007.

** ديوان الشاعر حافظ إبراهيم، (تحقيق)، مكتبة الإيمان، مصر، مكتبة جزيرة الورد، مصر، 2009.

سابعاً: أعمال أعدها للنشر أو حررها

اكتشف وأعاد نشر رواية: اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن للمغامر المصري حافظ نجيب، وهي الرواية التي اقتبس عنها المسلسل التلفزيوني المصري الشهير فارس بلا جواد. وقد قدم لها وألحق بها دراسة عن حياة مؤلفها.

** اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن (إعداد للنشر).

الطبعة الأولى، 1996، دار الحسام، لبنان، مصر.

الطبعة الثانية، دار الانتشار العربي، بيروت، 2003.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 8 مجلدات، لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر، 1998.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري، نسخة ميسرة ومختصرة (مجلدان)، دار الشروق بمصر بالاشتراك مع مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات، 2004.

** القمة الأمريكية السعودية الأولى: القمة السرية بين الملك عبد العزيز ابن سعود والرئيس روزفلت (البحيرات المرة، 1945)، (تقديم وتحرير ودراسة)، بقلم: الكولونيل: وليم إيدي (أول وزير أمريكي مفوض بالسعودية)، ترجمة: حسن الجزار، مكتبة بيروت، سلطنة عمان، شركة دلتا، مصر، 2008.

** دع القلق وابدأ الحياة، تأليف: ديل كارنيجي، إعداد وتقديم ودراسة، دار الحرم للتراث، مصر، 2009.

** كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس، تأليف: ديل كارنيجي، إعداد وتقديم ودراسة، دار الحرم للتراث، مصر، 2009.

** تربية المرأة والحجاب (ردًا على قاسم أمين)، تأليف: محمد طلعت حرب (باشا)، إعداد وتقديم ودراسة، دار الغد للنشر، مصر، 2009.

ثامناً: جوائز

** جائزة مؤسسة اقرأ الخيرية، مصر، المسابقة الثقافية للشباب لعام 1991، المركز الثالث في مجال الشعر.

** جائزة مؤسسة اقرأ الخيرية، مصر، المسابقة الثقافية للشباب لعام 1992، المركز الثاني في مجال المسرح عن نص ما زال مخطوطاً.

** جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1999، عن قصيدة: "نقوش على قبر شهيدة".

** جائزة الإبداع العربي من: دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة في مجال المسرح (المركز الثاني) عام 2000، عن مسرحية عاصمة للبيع.

** جائزة أحمد فتحي عامر في مجال الشعر (المركز الثاني) من الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، الدورة الأولى، 2003.

** جائزة أحمد فتحي عامر في مجال الرواية (المركز الثالث) من الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، الدورة الثانية، 2004، عن رواية القاهرة، بيروت، باريس.

** جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من نادي جازان الأدبي بالمملكة العربية السعودية في المسابقة الثقافية لعام 1423هجرية، عن قصيدة: "بقصائدي ويقيني".

تاسعاً: أعمال نقدية تناولت أعماله:

** "ممدوح الشيخ وعماد أو صالح شعاعان من شمس شعر تشرق"، منشور في: "كتابة: رؤى وذات"، صافي ناز كاظم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2003.

** "مقاربات نقدية في شعر ممدوح الشيخ"، تأليف الأساتذة: رمضان أبو غالية، صبري عبد الرحمن، أحمد مرسال، سامح القدوسي، إصدارات نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا، مصر، **2004**.

** رسالة ماجستير عن مسرحيته: "عاصمة للبيع" في: جامعة جنت البلجيكية، للمستشرقة البلجيكية ماريكي فان كرايسبليك، **2006**. (قيد الترجمة)

عاشراً: مساهمات أخرى

** "دولة المنطمة السرية، فيلم وثائقي، (الفكرة والإعداد والمادة العلمية)، قناة الجزيرة الوثائقية، قطر، **2009**.

** أعدَّ وقدَّم برنامج "المحفل"، قناة الحكمة (مصر)، مباشر، (**2011**).

** أعدَّ وقدَّم برنامج "من قلب الكيان الصهيوني"، قناة الحكمة (مصر)، مباشر، (**2011**).

** أعدَّ وقدَّم برنامج "ساعة من القاهرة"، قناة الاتجاه (العراق)، مباشر، (**2011**، **2013**).

** أعدَّ وقدَّم برنامج "إسلاميون"، قناة فلسطين اليوم (لبنان)، مسجل، (**2013** ، **2015**).

** نشر له مقالات في دوريات داخل العالم العربي وخارجه.

** قُدِمت ورقته الفكرية: "ماذا أعطى الإسلام للبشرية؟" في أول مؤتمرات "اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم"، (لندن، نوفمبر **2002**).

** مشرف على تحرير الصفحة الدينية بجريدة الدستور، مصر (**2005**، **2008**).

** عرضت فرقة مسرح دبي الأهلي الإماراتية مسرحية: "مملكة للبيع"، (إعداد وإخراج: عبد الله صالح) المقتبسة عن مسرحيته: "عاصمة للبيع"، دبي، يوليو **2009**.

** شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والثقافية في: مصر، لبنان، ليبيا، الإمارات، والعراق.

** شارك في عشرات البرامج التلفزيونية والإذاعية، الثقافية والسياسية في مختلف القنوات الفضائية المصرية والعربية.

** مدير المركز الدولي للدراسات والاستشارات والتوثيق (مصر)، **2013** – .. ..

تاريخ الميلاد : **14 / 8 / 1967**

الجنسية : مصري

للتواصل:

هاتف: **00201001761266**

E‹Mail: mmshikh@hotmail.com